

أنيس فتى

الشيخ أنيس وأولاده

دار الشروق

التاييخ انياج واطافرا

الطبعة الرابعة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الخامسة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة السادسة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة السابعة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة ٨٠ شارع سيديو المصطفى - رابطة المدونة - مدينة نصر
ص ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أنليس فنلور

التاريخ اثباتاً وظالماً!

دار الشروق

فـي هـذا الـكـتـابـ

صفحة

هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمان	٥
كالحيوانات يموتون كما يولدون في الظلام	١٥
علمته وتعلمنا هذه الحيوانات	٢٦
وراء جنكيز خان ربع مليون حصان	٣٩
خنازير كولبوس ملأت العالم الجديد	٤٩
كل عصر له خرافات خاصة	٥٦
ذهب كل أرض تدوسها الأغنام	٦٥
أكاديمية لتعليم الانسان	٧٤
من يعرف الانسان كثيرا يحترم الحيوان اكثر	٨٥
هو يسقط والرئيس يطير	٩٦
لو نام الأرنب قليلا لأدركته السلحفاة	١٠٥
نظرية التطور رد لاعتبار الحيوان	١١٦
خلقها الله بعناية لتقضى علينا باتقان	١٢٥
هذه الكائنات التافهة التي حطمت الجيوش	١٣٤
لا وفاء عند الناس والكلاب نظرية	١٤٣
عندما أعلن موسولينى حرب الابتكار ضد الأغنام	١٥٢
شجرة واحدة تكفى هزها وأنت تعرف	١٦٣
قرود في كل مكان	١٧٢
من قاوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس	١٩٣
القرود والسلسلة والقردياتى	٢٠٤
لولا سلامك .. سبق كلامك	٢١٥

لغز الحيوانات آلة حال عليها الزمن!

هذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة
عظم . اى ان الحيوانات التى كانت تعيش من
ملايين السنين قد ماتت فى ظروف لا نعرفها .
وتركت بقاياها . وجاء العلم الحديث فجعل
العظام فحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد
ذراته ليعرف كم واحدة من هذه الذرات قد
ماتت . . وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر
هذه الحيوانات .

ويمكن أن يقال أن التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد
الكهوف . ففى الكهوف جاء الانسان القديم وأمسك غصن شجرة
وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صورا لهذه الحيوانات . .
وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان
وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى
جديدة لكل ما حدث . . فالتاريخ عمل انشئائى . . أو موضوع
انشاء . . ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو دكان سمك .. أو حظيرة أبقار .. لأنه تاريخ
الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه
الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لأن الحيوانات قد
قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وأرجلها
وارتفعت أعناقها ونبت لها الريش والزعانف وقاومت قوى
الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعا
وأكثر عددا وأطول عمرا .. وسوف تنتهي الحياة الانسانية على
هذه الأرض أو تنتقل الى كواكب أخرى . ولكن الحيوانات هي
التي سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التي تعيش الآن وأضعف من الانسان كانت آلهة .
عندها الانسان وتلمس بركتها . وأقام لها المعابد وأشعل من أجلها
الحروب .

وفي الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس
العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الأخرى .
فكان هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والرأس ، ثم أصبحت
تحت أحذية الانسان .. كانت آلهة فأصبحت عبدا يسوقها ويذبحها .
أو يحبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها
الزمن !

عندها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها .
وحاول أن يستأنسها . وتحقيق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها . ثم
استخدم بعض هذه الحيوانات في جر العربات وجر عربات التاريخ
من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففي السنة التي ولد
فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما
حاسما .. وسهى عام الفيل ..

والقائد هانيبال زحف الى أوربا وأثار فيها الرعب وانسحبت
ألمه كل قواتها لانه استخدم الفيل لأول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. وبخول الخيول مصر
تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحيوانات أخرى غيرها اشتركت في ملحمة الحياة والصبر عليها
والصمود من أجل ما هو أفضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانسان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء .
أنها معارك الصداقة والعداوة . معارك السيادة .. وكان من
الطبيعى أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله فى أغانيه
وأعماله الفنية وفى أساطيره ..

والبداية قديمة جدا . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف
مليون سنة . وكان شكل الحياة بسيطا بدائيا . عبارة عن خلية
حية . هذه الخلية ظهرت فى الماء . والحياة على الأرض كلها خرجت
من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شئ حى » .
فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد فى ملايين السنين .
وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التى بها كل عناصر
الحياة : الهيدروجين والاكسجين وثنائى أوكسيد الكربون ومن
ورائها ومن حولها الأشعة فوق البنفسجية التى تفيض من الشمس
خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضارة » التى
لا بد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك فى الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر الماء وأصبحت
هناك محيطات وشواطئ من الوحل . والوحل هو الماء والطين معا .
أو هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت ألوف السنين لتتعدد

الحياة ويكون لها شكل . وينقل هذه الكائنات من البحر الى البر .
وتعيش هنا وهناك . وما تزال في المحيطات كائنات غريبة عجيبة .
هذه الكائنات هي سلالات مسمرة من مئات ملايين السنين .

ونوجد بعض الآثار في شمال أمريكا وشمال أوربا تشير الى هذا
النوع من الحياة التي ظهرت في البحر وتسللت الى البر ثم عادت
الى البحر . .

وفي الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية
بالعظام والانياب حتى لا تفنى . ونطورت الأشكال العظمية وانيابها
وازدادت مرونة . بل أننا نجد بعض الكائنات البحرية أصبح لها فك
أكثر مرونة . وأقدر على ان يمسك وان يعض . وهذه خطوة هائلة
في تطور الكائنات البحرية . . او الأسماك . . ولا تزال بعض
الأسماك محبوسة في أقفاصها العظمية . وهذه الأقفاص سجل
تاريخي لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الأسماك في البحر ، ظهرت الأعشاب
على الشواطئ . . والشجيرات والأشجار الكثيفة . . وانقلت
الأسماك من البحر الى الشاطئ . وليس هذا الانتقال قصيرا
كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . وأهم ما حدث : هو
ان هذه الحيوانات استطاعت ان تتنفس الهواء مباشرة - أي هواء
الجو وليس الموجود في الماء !

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع في درجة حرارة الأرض .
فذابت المساحات الهائلة من الجليد . وحدث طوفان . غرقت الأرض .
وزحف البحر على الأرض . فكان كل شيء بحرا . وغرقت معظم
الغابات وتراكم بعضها فوق بعض . ومضت الوف السنين . وانحسر
الماء الساخن . أو الماء الذي يغلى . والذي جف . واحترق كل شيء

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى فحم . . الى مناجم الفحم التى تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتى عام . .

ولم تنعدم الحياة على الأرض . . بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها أشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الأسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطئ . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر . . وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما . . أو هي أجنحة .

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وإيابا من البر الى البحر .

فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار . وحدود يمحوها الإنسان ، وحدود جديدة يضيفها الإنسان . . وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما فسير هذا الشكل بعنف . . ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا أكبر للبقاء لانها تضع بيضها على الشاطئ بعيدا عن الزواحف أو الأسماك المفترسة .

ويظل البيض على الشاطئ أو في الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . وإذا كان البيض يحمى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تفتر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة أخرى . من مشاكل التماسيح الآن في بحيرات أواسط أفريقيا أنها تضع بيضها على الشاطئ وعندما تخرج التماسيح الصغيرة من البيض تعاجلها القرود بقتلها . . أو أن القرود تحطم البيض قبل أن يفقس . . ولذلك فالقرود خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة . وجعلتها أقل مرونة . وجعلتها إذا وقعت لا تقوم . وإذا قامت تنحسر بين الأشجار أو بين الجبال . وتظل كذلك حتى تموت . . فالعلم الحديث كشف لنا عن عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها أحد الوديان حتى ماتت . . مع أن اصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وأن يصعد الجبل ومنه الى الوادي أو الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات . . فالكبير عاجز عن الشيء الصغير الذي ينقذه من الموت أو من الفناء ! وقد فئيت هذه الكائنات الكبيرة، لأنها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل اكبر واقل قوة . ولكنه أقل حركة . ولذلك كان « مجاله الحيوى » ضيقا . . أى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها أضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فانقرضت فيلة كثيرة جدا ، وبقيت نمور أكثر . . فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والافلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها — أنظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تسأل كيف هزمتك أو كيف قهرتها ؟ مع فارق واحد : ان لديك عقلا ، ولدى

الحيوانات مخالب وانياب . وانها بانيابها واذلافها واذفارها نقشست تاريخها على انقاضها وانقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا افسدنا وانفسلنا !

ولابد من لفت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور ان الحياة اخرجت نفسها من الماء الى الأرض ، وزحف وطار وتقامت وقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الا ننسى أن هناك « ارادة عاقلة » . . ان هناك « حكمة واعية » أو « عقلا كونيا » يعنى : الله . .

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب الطوب . . أو مجموعة من الألواح الزجاجية أو الخشبية . . مع أن هذا الفندق مجموعة قوالب والأواح وأسلاك . ولكن الفندق ليس كومة من المواد المختلفة . وانما هو شكل هندسى معمارى . هذا الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا والاقتصاد والسياسة أيضا . أنه صورة عقلية . صورة حكمة . أى أن هناك عقلا أو أكثر من عقل جعل الطوب غرفا والألواح نوافذ والأسلاك كهرباء وتليفونات وتلفرافات . . ثم هناك قواعد وقوانين تربط بين الموظفين والزبائن . . والذي يحدث فى فندق حدث فى ألوف الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية . . الى كائنات متطورة . . الى زحف عنيف نحو الحياة والبقاء رغم كل الظروف الطبيعية والانسانية المضادة . .

هناك — اذن — حكمة الحياة . . التى هى ارادة هذا الكون . .

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا عن الكثير جدا (ألف مرة جدا) مما فى هذا الكون . . مما فى هذه الأرض . . أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى . . أو فى هذه الخلية الحية فى حيوان أو انسان أو نبات ! — انتهى لفت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه أقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا نزف يدل على انه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة و ألف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط أن كان الانسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم أكلها، أو انه أكلها قبل أن يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها أنه حبسها وأذلها أو ذللها حتى أصبحت ذيلا له . . مثل كلبه تماما . والانسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استأنس الكلب ثم أطلقه على الحيوانات . فالكلب هو أول حيوان استأنسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف أيضا أن يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات ورائها . وكانت الأسوار من الأشجار ثم من الأحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات . . ولابد أن تلتف الحبال حول أرجل لو أعناق الحيوانات .

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « عقدة » . وعندما اهتدى الانسان الى « العقدة » كان قد

اكتشف شيئا عظيما جدا . فهذه العقدة كانت رابطة للخيط والأنسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عملا تافها . وهى بالفعل كذلك الآن . ولكن من مئات الألوف من السنين كانت اكتشائها لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء !

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يحبسون الخزائير دون أن يعرفوا انها طعام يمكنهم أن يعيشوا عليه . . كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لانها طعام ، ولكن لانها جميلة الشكل فقط . أى أن الانسان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك أن الانسان كان فنانا محبا للجمال . وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وأن لديه ما يتفرج عليه . . والانسان لا يستطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا عن طريق القوة . . قوة الصيد وقهرته على حماية ما يصيده . . فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف . هذه النقوش هى القوة والجمال . فالحيوانات منطلقة بسرعة هائلة . والانسان قد سجل هذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم انتقل من مجرد الاعجاب الى تسجيل ذلك . وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدفة ، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالأسبانية : توروس . . توروس . . أى ثيران . ولم يكن الذى رآته ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول أيضا . ألوانها حية قوية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين ألف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

ولابد أن فكرة « رأس المال » قد ظهرت في هذا الوقت . لان كلمة « رأس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقار والخيول . فالذى يملك عددا كبيرا منها هو الأغنى وهو الأقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها وإطعامها والتباهى بها . فهذه الحيوانات ثروة وقوة . ولا يزال رأس المال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائية ترى في كثرة الحيوانات مصدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأغنام أو الأبقار . ان قطيعا منها هو استعراض واضح بارز متحرك لثروة الأب وأهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة . .

وبعد ذلك عرف الانسان أن الحيوانات ليست الا طعاما مدخرا . . طعاما يمشى على أربع . . والحيوان ليس الا حارسا للحمة حتى يجيء الانسان فيقرر أن يذبحه ليأكله أو يذبحه ليبيع لحمة . أو يبيعه لغيره من الناس . .

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الانسان نفسه كما سنرى .

واذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، أى من أجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فان الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان أو الانسان الآخر لأسباب أخرى غير الجوع . وقد حاول الانسان ان يقتنع نفسه بالعنول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد — مع أن حيوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !



كالحوانات يموتون كما يولدون في الظلام!

الانسان حاول ان يفسر كل شيء حوله تفسيراً
انسانياً . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما
ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف
وتغضب . وتعيش حياة اجتماعية ولكل جماعة
زعيم . وزعيم القطيع هو الذى يقودها يمينا
وشمالا ..

واذا مات رأس القطيع ارتبكت الجماعة حتى
تجد لها رأساً جديداً . والانسان قتل الحيوانات
ليأكلها أو خوفاً منها . ولذلك خاف الانسان من
هذه الحيوانات ان تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذى جعله يكف عن قتلها بالالوف .
فالخوف من الانتقام يمكن ان يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند
الانسان . فالضمير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن أن

بعض الحيوانات يجب ألا يمسها بسوء .. أو لا يمسها . فهي شيء ممنوع لمسه . فالمس بمناسبة . ثم أن الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . أو علامة مقدسة . أو شيئا مقدسا ينلمس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن أموانه من البشر .

وكثيرا ما أصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يكفر بهذه الحيوانات المقدسة . تماما كالجندى الذى يحارب تحت العلم . ورغم ما أصابه من هزيمة فانه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شرفه وهو كرامته .. وانه لابد أن يفتصر مرة أخرى !

وظهرت عند الانسان فكرة أخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. أو ينتقل من جلده الانسانى الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى أجسام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ، فمن الأفضل ألا يؤذى الحيوان بقتله أو أكله !

وربما كانت هذه الفكرة هى التى أنت فيما بعد الى أن يقال أن الانسان أصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانسانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى — وهذه هى « الدائرة الحيوانية » التى يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انسانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانسانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون أن كل شيء ثابت الا الانسان ..

فالفيل له مواعيد للفيضان ، والشمس تشرق وتغرب . . والقمر يصغر ويكبر . . كل ذلك في مواعيد ثابتة . . الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة . . وهذا التبدل اهم مظاهره : أن ينتقل الانسان من جسم الانسان الى جسم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لأسباب غير واضحة لنا الآن ، في الشرق والغرب . وفي القرن السادس قبل الميلاد . فمثلا عند الفيلسوف اليوناني فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا في الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصا أن يؤكد لتلامذته أن كلامه عن الحيوانات ليس الا رمزا . وانه استخدم الحيوانات في نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند أقل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفيا . .

يقول بوذا . . ايها الرهبان هناك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشاب . ايها الرهبان انها الخيول والاعنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى ان الحياة هي الطعام ومن اجل الطعام هو هذه الحيوانات . واذا قدر له أن يعيش بعد الموت فانه سيكون حيوانا مرة أخرى . . ايها الرهبان هناك حيوانات تأكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمنت أن تعود الى الزبالة . . ايها الرهبان ان هناك اناسا هكذا . افهموني . ايها الرهبان : أن هناك حيوانات ولدت في الظلام وسوف تموت في الظلام . النور يوجعها ويضللها ويفزعها . ان هذه الكائنات هي البراغيث والصراصير والخفافيش والبوم . . ان هناك حيوانات ولدت في الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح . . ان الاشرار ، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضلون الحياة الدنيا انهم . . مشدودون اليها . انهم عاجزون عن الانسلاخ عن الجسد عن المادة عن الشهوة . . انهم حيوانات » .

ولم يفهم تلامذته مئات السنين أن المقصود ليس الحيوان ، وإنما الحياة الحيوانية ..

وعند الاغريق وجدنا الآلهة يعاقبون الانسان بأن يمسخوه حيوانا . أو انهم يقومون بتهريب الانسان في صورة حيوان .. ومن السهل جدا أن يتحول الانسان الى حيوان ثم يعود الى انسانيته . والاغريق عباقرة في حكاية هذه الخرافات . وفلسفتها وتعميقها . والشاعر اوفين في كتابه « التحولات أو مسخ الكائنات » من ترجمة د. ثروت عكاشة يقدم لنا روائع القصص والمغامرات وكثرا من المعانى الرائعة . ولكن الاغريق يرون أن الانسان هو اسمى الكائنات . بل انهم يرون أن الانسان أعظم من الآلهة وقادر على أن يتغلب عليهم بل أن الآلهة تحقق على الانسان وبعض الآلهة يتمنى ان يكون انسانا ولكنه لا يستطيع .. ولذلك فالاله اذا اراد ان يتفوق على الانسان كان من الضروري أن يمسخ نفسه انسانا .. لماذا فعل تغلب عليه الانسان . ولذلك فان الآلهة تتكاتف معا ضد الانسان القادر على التمرد على كل الآلهة !

والعالم الكبير فريزر يقول : لابد أن الخنزير كان حيوانا مقدسا عند اليهود من الوف السنين . فاليهود يحرمون أكل الخنزير ويحرمون أكل الجمل . ويرون أن الجمل مصدر لكثير من الامراض . ولكن السبب الحقيقى ان الخنزير لا يناسب الحياة التى يعيشها البدو في المناطق الحارة . فهو بطيء الحركة . وهو في حاجة الى كثير من الطعام ، وغير قادر على أن يتحمل الجوع فكرهوه ووجدوه عبثا . ثقيلًا عليهم . وقد أثبت العلم الحديث ان لحم الخنزير هو مصدر متاعب المعدة والأمعاء . وتحريم لحمه صحى أيضا (وفي التوراة نجد وصفات علاجية من طريق لحم الطيور . فقد وصف الانبياء

اليهود لحم الطيور علاجا للمصابين بكثير من الامراض الجلدية التي استعصى شفاؤها .

شيء عجيب حقا أن يتقدم الفراعنة في كل مجالات المعرفة وان يسبقوا زمانهم ، واتهم لا يزالون اسبق شسعوب العالم في المفلك والتحنيط ، ومع ذلك يقدسون الحيوانات !

والحيوانات التي يقدسونها كثيرة . وهذا يجعلنا نعتقد أن الفراعنة كانوا نباتيين . فهم يقدسون الابقار . والعجل آبيس (بالالف المحدودة والباء الثقيلة) قد عثر عليه العالم الاثرى مارييت في سقارة . وهذا العجل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية . وتمثيله واضحة وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه . وكانت تقام له الحفلات . وتقام له الجنازات اذا مات . وبعد وفاته مباشرة ينطلق الكهنة بين قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة في راسه او عنقه او جسده — فاذا وجدوه اقاموا الحفلات وتوجوا المعبود الجديد . واستراح الناس لانهم عثروا على رب لهم ، او حارس لهم يحميهم من الحيوانات الاخرى . . ولذلك قدموا له طعاما خاصا وحريما من الاناث !

والفراعنة عبدوا الطائر « ابيس » — بالالف المكسورة والباء الخفيفة — وهذا الطائر شبيه بابو تردان ولكنه ليس هو . ويقال انه الطائر أبو منجل . . ويقال ان هذا الطائر قد انقرض ولم يعد احد يراه الا في أعالي النيل وفي المتحف المصرى . انه بنى العنق والذيل متوسط الحجم .

والتمساح الذى وصفه هيروdot بانه يملأ النيل . وان سكان
العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد
ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى ان زعيما عالميا
كبيرا سأل الرئيس عبد الناصر ان كانت التماسيح ما تزال فى مياه
النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى « اسوان »
كانوا لا يكونون له احتراما كافيا . كانوا ياكلونه . وقد جاء فى احدى
الاغنيات المصرية القديمة ان واحدا يقول ما معناه : اقوم من النوم
اقول يارب عدلها ، بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر اعدى لها
.. وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتى امام عينى ولكن لا
استطيع ان اذهب الى حبيبتى . ان التماسيح فى الماء ولكن حبى
جعل التماسيح ضفادع .. ثم جعل الضفادع فقاقيع فى الماء .
ولا بد ان اذهب الى حبيبتى » .

وكان المصرى القديم اشجع واصدق واكثر استعدادا للتضحية .
اما المصرى الجديد فهو قد افتعل صعوبة العبور الى حبيبته ليشكو .
فهو قادر على ان يذهب الى حبيبته — ان كانت حبيبته — فلا مشاكل
فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل ..

وفى « كتاب الموتى » الفرعونى اجد كلاما كثيرا عن « اللقط »
الذى يمزق الاناعى تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد
رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان اول ذكر للقط
قد جاء قبل الميلاد بعشرين قرنا عندما عرفنا ان زوجة أحد رجال
بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وان هذا اللقط جاء الى

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى أو هو يحاول أن يجد الموعظة الاخلاقية . فهناك صور لجثث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك غار عملاق امام قط مربوط بالحبال !

اما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطاب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقدم له ٢٠٠ قط و ٣٠٠ كلب متوحش و ١٠٠ ذئب . كلها تقف امام بابه ، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى ماشيته ولا على أن يأكل .. اما النوم فهذه مشكلة المشاكل :

والحمار افريقى الاصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من آلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . واول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وامام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرسيا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام أن يبين لنا ما الذى يحمله الحمار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن أقام احتفالا للعجل أبيس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! !

ويقال ان المصريين القدماء كادوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

المطابع الاغريقى والتي تقام فيها تماثيل ادوليس وامروديت ، لأن
احد الرومان قد قتل قطا !

اما الحصان فالمصريون قد عرفوه أيام الاسرة الثامنة عشرة .
ويقال ان الحصان قد أتى به الهكسوس — وهم ملوك الرعاة .
ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة . فمن المعروف أن الحصان قد
استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل . وعندما دخل الهكسوس
الى مصر ، كان الحصان قد سبقهم اليها . ولا يزال الحصان يحتفظ
بالاسم العربى القديم : سوسيم — أى خيول . والعربات اسمها :
مركبوت .

أما الجمل فلم يدخل مصر الا فى عهد الرومان . .

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل أن يعرفوا
ركوب الخيول نفسها . وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اسمها
لوحة النسور . ففى هذه اللوحة بعض النسور تحوم حول جثث
القتلى بينما نجد احد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان .
وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرنا أى على أيام هامورابى . .

والخيول حيوانات مفضلة عند الاغريق . فهم يرون أن الحصان:
حيوان نبيل جميل . وان الحصان لابد ان يكون الآلهة قد صنعوه
بأيديهم مباشرة . أى انهم لم يكلفوا احدا من صغار الآلهة بصنعه . .
وكان الاغريق يفضلون الحصان لأن فيه تمردا أى نزوعا الى
الحرية . فهو جميل نبيل حر . وكلما كان الحصان شرسا ، كان ذلك
مجالا وتحديا للانسان ان يستأنسه فاذا فعل فهو بطل . الاسكندر

الأكبر مثلا كان له حصانه المشهور بوسيفالس . ولم يكن أحد يقدر على ركوبه . ولكن الاسكندر استطاع عندها اتجه بحصانه ناحية الشمس . والشمس هي التي جعلت الحصان أقل انطلاقا . ولم يكن هناك شيء أعز عند الاسكندر من هذا الحيوان الجميل . فلما مات حصانه اقام له المدن باسمه . وأقام مدينة في نفس المكان الذي دفن فيه رمزا للوفاء . فقد حمله هذا الحصان حتى الهند !

وأخذ الشعراء والفنانون الكثير من الحيوانات مادة لأعمالهم الفنية . فهم يختارون للحيوانات أدوارا في الحياة الاجتماعية والسياسية للإنسان . ويجعلون للحيوانات حياة تنقذ حياة الإنسان . والمؤلف المسرحي العظيم اريستوفانيس له مسرحيات : الغربان والضفادع والطيور . . وقد استخدم هذه الحيوانات للسخرية من الإنسان . وقد فعل ذلك كثيرون من الأدباء في كل العصور .

والكاتب اليوناني سيمونيدس عندما يتحدث عن أصل المرأة يقول ان هناك أربعة أنواع من النساء : نوع جميل نبيل انحدر من الخيول . والثاني هو الذي لا يكف عن العمل ، ولا بد انه انحدر من النحل . والنوع الثالث هو الذي يدفن نفسه في الانجاب وهو الذي انحدر من بذور القمح . والنوع الرابع القذر الدنيء ولا بد أن يكون قد انحدر من كلبة — ولا تزال كلمة « كلبة » في اللغة الانجليزية أحط انواع الشتائم .

وهناك الفنان اليوناني الشهير ايسوب . كان عبدا واطلق سراحه . وظل يرتقى حتى أصبح سفيرا . وقد روى قصص الحيوانات ونوادرها وهو لا يرفع عينه عن الإنسان وسفالته وانحلاله الخلقي .

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين
مكيدة . فعندما زار معبد الفن افلح رجال الدين ان يضعوا كوبا
من الذهب في ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قنقا من
احدى الصخور ، فمات فريقا !

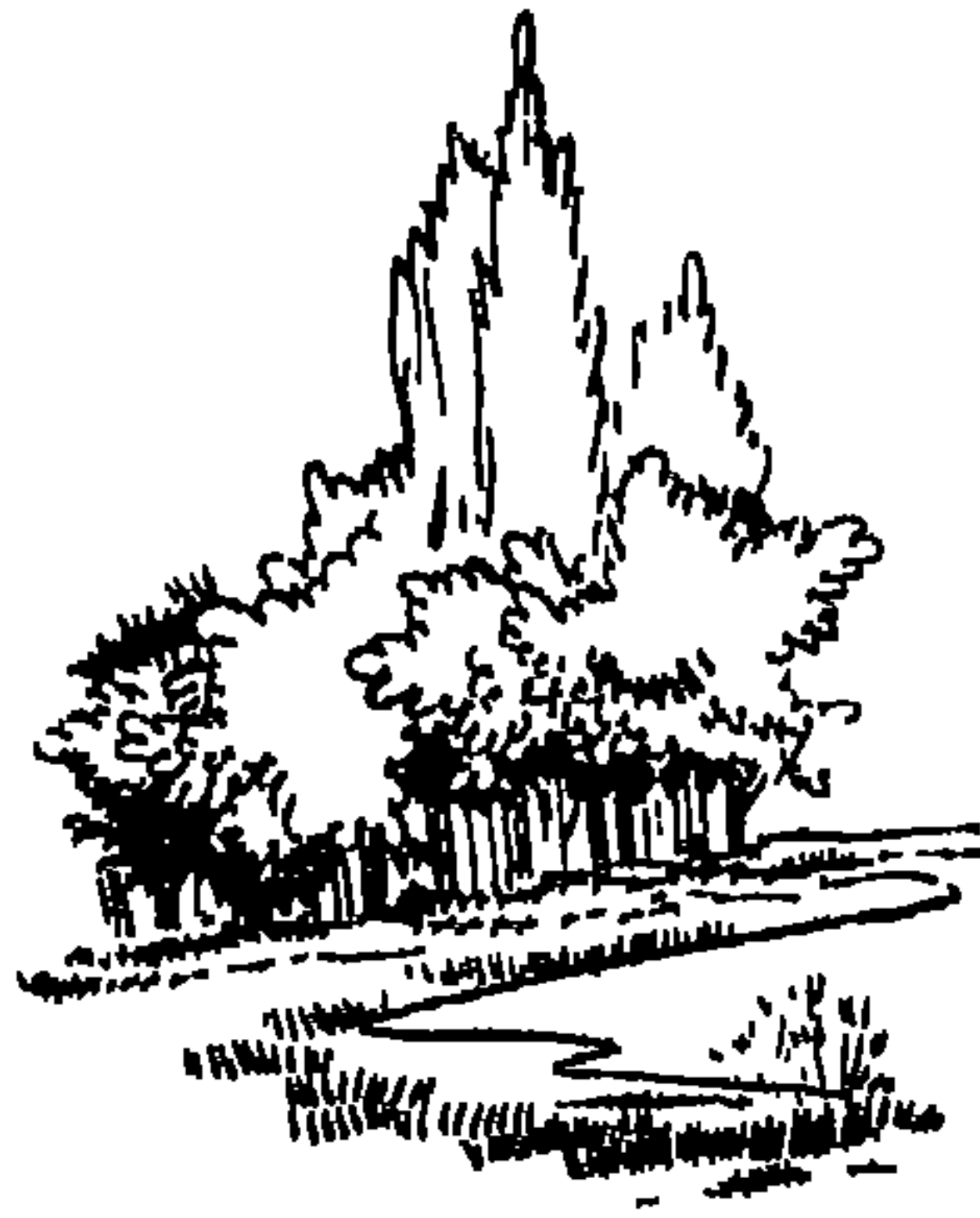
— وظل الانسان الوف السنين ينظر الى الحيوانات على انها كائنات
ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تعبر . او اذا عبرت كان ذلك
في صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر
سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا فذا اسمه ارسطو هو الذى ارسى
قواعد علوم باكملها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات
ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض . . فهو الذى ادرك
ان حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها . . حيوانات لها فقرات
وحيوانات بلا فقرات . . حيوانات تلد وحيوانات تبيض . . وهو
اول من اشار الى ان هناك علاقة بين بيض الدجاجة وبين الديك .
وهذا يكفيه جدا ان يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى ارسطو في
كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال ان الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات
والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات
مهما بلغ عددها لم تكن سببا كافيا لان يهتدى ارسطو الى هذه الحقائق
الحيوية . لقد اخطأ ارسطو كثيرا في الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء
تعتبر تافهة اذا قورنت باكتشافاته العظيمة في علوم الحياة ووظائف
الاعضاء . لقد اخطأ في عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات
.. ولكن اشاراته الى الحياة في بطن الام ، هي الخطوات الاولى
الباهرة في العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

وعندما سئل ارسطو في احدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط
مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شيء . اننى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى
افهم شيئاً مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيراً !

سوف تقول اكثر فيما بعد !



علمته وتعلمنا ! هذه الحيوانات !

ثلاث مراحل مرت بها الانسانية ..
مرحلة : اكلنا الرغيف وتفرقنا !
اي كل ما كان يجمع بيننا هو لقمة العيش .
ومرحلة : اتنى اعرف جانب الرغيف الذى
اضع عليه الزبدة .
فهناك اكثر من الرغيف .. ثم ان للرغيف
جانبين ، وانا لا اكل الزبدة لاتنى وجبتها . ولكنى
استطعم الزبدة واختار لها المكان المناسب .
ثم ان عندى مقسعا من الوقت !

ثم مرحلة : كل ما اطلبه من هذه الدنيا هو الرغيف والفرشة !
اي اكل رغيفى وابسط نفسى بالضحك واللعب والحب . وبعد
ذلك لا شيء . ويجب الا يكون هناك اى شيء آخر .

الأديب الرومانى القديم الساخر جوفينال قال : ما الذى يريده هؤلاء .. العمال .. لا شيء الا الرغيف والذهاب الى السيرك !

ولم يكن جوفينال يحترم العمال وانما يحتقرهم . فهو يرى أن الذى يعمل بيديه لا رأس له . فقط يأكل ويحب . ولا قيم أخلاقية ولا دينية ولا مثل عليا ولا طموح !

ولكن جوفينال من ١٩ قرنا كان ظالما . فهؤلاء العمال كانوا يطلبون الخبز ، لأنهم لو طلبوا شيئا آخر ما وجدوه ، لو طلبوا اللحم مثلا ، فمن أين يشترونه لو وجدوه فى الأسواق . فلم تكن الحيوانات متوافرة فى ذلك الوقت . لأن اللحوم ما تزال طعام القادرين . أما الفقراء فليس لهم الا الخبز والضحك على الأغنياء والسخرية من فقرهم — ولا تزال هذه مشكلة مئات الملايين فى العالم .



وما حدث فى الحرب العالمية الثانية دليل جدا على ذلك . ففى أثناء هذه الحرب ماذا جرى ؟ الجنود وحدهم هم الذين يجدون اللحم . وطبيعى ألا يبخل أحد عليهم بذلك . فقد ذهبوا يقدمون أرواحهم من أجل الآخرين .. ثم ان عمال مصانع الذخيرة ارتفعت أجورهم وأصبحوا قادرين على شراء الرغيف واللحم ومع ذلك فان أمريكا نفسها قد وزعت اللحوم بالبطاقات !

فكانت اللحوم نوما من الترف . لأن الأرض لا تستطيع أن تطعم كل الحيوانات . والحيوانات لا تستطيع أن تشبع كل الناس . والأغنياء فى الدنيا يملأون موائدهم بلحوم الحيوانات

والطيور والأسماك ، والفقراء يلتقطون فتات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات في التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بين الخبز واللحم .

ففي المدن الأغريقية القديمة ، كان لابد أن يجد الأغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المراعى . . أو تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلل والأشجار ، ولم نجد في الأدب الاغريقى القديم حديثا كثيرا عن الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص في الاستمتاع بالطعام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والقلبات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن أنبه الى أننا الآن نتعلق من ذيل بقرة أو جاموسة أو كلب ونمشي معه أو وراءه في تاريخ الانسان . . فأنا وأنت معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على عقل وقلب ومعدة ملايين الناس في ألوف السنين — انتهى التنبيه الذى أضأته حتى لا تنسى ولا أنسى أنا أيضا عن أى شىء نتكلم منذ أسبوعين وفي الأسابيع التالية .

وهذا يفكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه يجمع الأصداف وجذور النباتات وجهاجم الحيوانات فقال : لا شىء سوى أننى أقفز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) ! . .

* * *

نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ أكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هذا الاسم يتردد في كتب كثيرة في التاريخ . ففي تاريخ المعارك كان قائدا عظيما .

ذهب بقواته الى أرمينيا وهزمها . وسحقها ومات من جيشه خمسة من الضباط وجرح مائة جندي . جيشه كله كان ١٨ ألفا . هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند إحدى المدن الأرمينية وبكى ، فقد أحالها جنوده ترابا !

هذا الرجل أيضا كان يحب الكلام ، أو يحب الكلام أثناء الطعام . وهو أول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقا لعصره بعشرين قرنا . فالأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الانسانية قرحة المعدة الا عندما عرفت السندوتش . أي عندما عرفت الأكل أثناء المشي وأثناء القراءة وأثناء العمل وأثناء الفرجة على المسرح وعلى السينما وعلى التلفزيون . . ولم تعرف الانسانية أوجاع المصراع المغليظ الا عندما عرفت الموائد الصغيرة في المطاعم اذ يجلس الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهه الى الحائط لأنه مشغول بهومته الخاصة . وهو — ككل أبناء المدن الكبرى — حريص على أن يكون مع همومه وحده . . وتتأكد له هذه الوحدة ، والقرحة أيضا !



وهذا الرجل أيضا عندما توفي حاول الناس أن يدفنوه في احتفال ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعا وأوصى بأن يموت على مزاجه . فطلب الى أقاربه أن يملأوا قبره بالتفاح وأن يتغطى به وبالورود!

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التي أنشأها حول قصره ٢٥ ألف كيلو سمكا !

واذا جاء ذكر الفلاسفة فلم يكن هذا الرجل مفكرا عظيما .
وانما كان عاشقا لكل صاحب فكر عظيم . وكان اذا اراد ان
يتحدث مع احد طلب اليه ان يزوره في بيته . فاذا جاء الى البيت
راح الاثنان يأكلان ويشربان ومن المؤكد انه قد شهد ميلاد الكثير
من القضايا الفلسفية والاجتماعية والسياسية . وكان يضحك
دائما ويقول : مساكين هؤلاء الفلاسفة . انهم لا يجدون ما يأكلون
واذا وجدوه لا يستطعمونه . انهم اناس لديهم مشاكل في احتشائهم
— ولم يكن في هذا مبالغة . بل كان سابقا لعصره بمئات السنين!

لأسباب أخرى يهمننا هذا الرجل لوكولوس . فهو أول من ابتدع
« البيسين » . . أى حفر الأرض وملأها بالماء . ثملقى في الماء
الأسماك . وكلمة « بيسين » معناها في اللاتينية حوض السمك .
وهو كان حريصا على ذلك لأنه يريد أن يأكل السمك طازجا .
وكان يأتي بالأسماك من أماكن مختلفة من العالم . وهو أيضا
أول من ابتدع « الكباريه » . . فهو قد صنع كهونا تحت الأرض . .
وأضاءها . . وجعل الراقصات والمغنيات يفرشن الضيوف . .
ثم أول من جعل الحيوانات تمر بين الصفوف ليتفرجوا عليها .
وكان يأتي بالحيوانات والطيور النادرة من أفريقيا . وكانت
الكهوف ملونة . وكانت عليها نقوش للآلهة وأساطير الاغريق
وأساطير الشعوب القديمة .

وهو أول من أتى بثمرة الكريز من البحر الأسود . وقدمه
لضيوفه .

. وهو أيضا أول من أتى بالحيوانات المفترسة وأطلقها في غابة
لها أسوار . فكان أول من أقام حديقة حيوانات في أوروبا . وهذه

الفكرة مأخوذة عن الشرق ، فقد كان من عادة الملوك في الشرق ان يحتفظوا في حدائقهم الخاصة بالحيوانات النادرة . وعندما جاء الاسكندر الاكبر الى الشرق كان يضع الى جوار خيمة القيادة أسدا أسيرا — رمزا لقوته هو ، وأنه سوف يفعل نفس الشيء مع أعدائه !

وكل هذه العناية بالحيوانات والطيور والأسماك كان من أجل متعة الأغنياء والحكام . ولذلك كان الناس — ولا يزالون الى حد ما — يحتقرون صناعة الجزاراة . لأنها قتل للحيوان بينما الأغنياء يفضلون أن يبقى الحيوان حيا . فهم ليسوا في حاجة اليه . أو أن لديهم ما يكفيهم . ولذلك يجب أن يتفرجوا ويستمتعوا . فاكل اللحوم ليس مشكلة . وانما هم انتقلوا من مشكلة الطعام الى الاستمتاع به والتفرج على الذى زاد على حاجتهم !

ومن الغريب أن الرومان كانوا يشربون البسان الحيوانات . ويصنعون منها الجبنة . . ولكنهم يحتقرون من يأكل الزبدة . . ولكن هذا المعنى تغير عندما اهتمت احدى الغانيات الى أن الزبدة اذا وضعت على الوجه أو على البشرة فانها تجعلها ناعمة لينة . فارتفع ثمن الزبدة ، وأصبحت الزبدة هى صناعة كل البيوت ، ومطلب كل النساء . . ووجدنا فى الأدب اللاتينى مثل هذه العبارات : انها زبدة . . انها تذيبك كما لو كنت زبدة . . ان بشرتها لم تعرف الزبدة . انها هكذا خلقها الله !

وعرف الرومان أيضا « حظائر » الأبقار . فكانوا يحبسون الثور مع سبعين بقرة . ويشترطون أن يكون الثور ابن سنة أو ابن سنتين على الأكثر . أما الثيران التى تزيد أعمارها عن ذلك

فانهم « يعقمونها » ويطعمونها لتزداد سمنة فيتكدرس لحمها على
موائد الأغنياء والقواد ..



يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم
تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها أرادت الرفق بالفقراء
وبالحيوانات وبالطيور وبالأسمالك وبمعشوقاتي .. لو كانت
الآلهة تجيب لى طلبا أخيرا فاعرف منها ما الذى سوف يأكله الناس
فى بيتى وهم يبكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون
هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتفرجون على الراقصات .. أننى
اعرف أن المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل
الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شىء فى دنياه ..
وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن
الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة أخرى .. أدفنوني .. ضعوا
سكر القصب فى فمى .. بل لا أريد قصب السكر وإنما أريد عسل
النحل فإنا لست مريضا . وإنما ميت من شدة الشبع واللذة ..
انتهيت » !

وكان من عادة الرومان أن يعالجوا مرضاهم بقصب السكر
الذى جاءهم من الهند . أما عسل النحل فهو المصدر الوحيد
للسكر عندهم .. أو للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وقد
عرف الفراعنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم .
فالفراعنة كانوا يضعون العسل على الدمامل وعلى الجروح .
وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة ليجعلها
ناعمة . وكانوا يحنطون به الموتى . ولم يكن الفراعنة يعرفون
ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل
لأى ميكروب . ولكن الفراعنة اهتموا الى ذلك من التجربة .

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ أن أسدا ميتا متعفنا ومع ذلك جاء النحل وأقام خلية في هذا الجسد الكريه الرائحة . ومن هنا كانت الفزورة النى دوخ بها شمشون أبناء غزة عندما قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف أحد كيف يجيب على ذلك . ولكن دليلة راحت الى شمشون وأغرقنه بالقبلات والأحضان . وعرفت نفسير هذا اللغز بعد أن قصت شعره ، الذى هو مصدر قونه ، قال لها : الحى فى الميت ، هو النحل فى جثمان الأسد الميت .. والحلو المر هو العسل فى جسمه المنعفن !

ومضت مئات السنين لنعرف أن عفونة جسم الأسد لا تنتقل الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى أمريكا نجد أن شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة الى حديقة . ليقوم النحل بنلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى مكانه . . وقد عرف الفراعنة ذلك من ألوف السنين . فقد كان الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عند المدن ويركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق الزهور ويلقحها . . ثم ينقلونه فى النيل الى أماكن أخرى وهكذا !

* * *

وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبح الحيوانات تقربا للآلهة . ولكن الرومان ذهبوا الى أبعد من ذلك . فكانوا لا يكتفون بتقديم الذبيح ، وإنما يجيء الرجل العراف ويفتح بطن

الحيوان وينظر الى الأمعاء . تم ينظر الى الكبد . ومن شكل الأمعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا القربان . وكانت قراءة الأمعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب أن الرومان تفوقوا في ذلك . بل أن أحد العرافين قال ليوليوس قيصر : اليوم أسوأ يوم في حياتك . اجلس في بيتك سوف تجيء الأنباء تحت قدميك . . فلا ترفع سيفك على أحد . . ولكن غدا سوف تسمع أسعد نبأ في حياتك أن شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت نبحت الخنزير قبل هذا الثور ل جاءت أخبارك السعيدة أولا . وفي نفس اليوم تأمر بعض الرومان على أعز صديق ليوليوس قيصر فقتلوه وهو مخمور . وفي اليوم التالي أنجبت إحدى عشيقاته طفلا ذكرا . وكان هو يتمنى ذلك !

ولا يزال بعض العرافين في أفريقيا يعرفون الطالع من مجرد النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الأرض . . أو عظام الطيور وقد القيت على الأرض فجاء ثعلب أو ثوب وقلب فيها بأرجله ولم يفتها . . ولا يزال العرافون في هونج كونج يعرفون مستقبلك من قطعة اللحم النيئة الدامية إذا أنت قلبتها في طبق ثم هزرت الطبق . وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها في الطبق وشكل الدم حولها يستطيع العراف أن يحدثك عن مستقبلك !

وأهتدى الرومان الى ضرورة أن يشغلوا الشعب بشيء . وكان الشعب مشغولا بالخيول . وسباق الخيول وسباق العربات . وأقام الرومان « مسارح » لسباق العربات . . وأشهرها ملعب

كولسيوم في روما الذي يتسع لتسعين ألف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين . . أو لأسره معينه . . أو لسائق أو لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الأغنياء . وقد اقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . وأتى الأغنياء بمربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربّة زيا أحمر أو أخضر أو أزرق . . وينقسم الناس الى مشجعي الأحمر أو الأخضر أو الأزرق واختفى اللون الأخضر . وأصبح الناس فريقين مقامرين ويتقاتلون . وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف في السياسة وفي الدين . وكانت هذه الخلافات حادة وأستهلكتهم وأبعدتهم عن السياسة . واستراح الأباطرة الرومان الى أن هذه المسابقات قد استغرقت الناس فشجعوهم على ذلك .

ولكن حدث أن قامت مظاهرات عنيفة في القسطنطينية بين مشجعي « الفائلة الحمراء » — النطق الصحيح « فائلة » لأنها كلمة انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية — ومشجعي « الفائلة الزرقاء » . وقرر الامبراطور جوستنيان في يناير سنة ٥٣٢ أن يعصف بهذا العبث الرياضي السياسي . وجمع فريقا من الطرفين . وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الامبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا أن زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه أن يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا اعترض على الفريقين ولكننى احب الفريق الأخضر الذى ليس له مشجعون !

وفرحت الجماهير بأنها أغلبية والأمبراطور اقلية .. وبان
الامبراطور أيضا يحب مسابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول أيضا بتربية الخيول ومجنون
بمشاهدتها .. ولكن جوستينيان أنزل قواته وقتل ثلاثين الفا من
مشجعي هذه الرياضة في يوم واحد !

* * *

ولم يكتف الانسان الذى يريد أن يمزح اللذة بالألم ، والمتعة
بالقسوة من الفرجة على الخيول ، وانما أتى بالحيوانات المتوحشة
من افريقيا وأطلقها بعضها على بعض . والناس يصرخون من
الفرع ومن اللذة . أطلق الأسود على النمر . وأطلق الذئاب على
الكلاب . ثم أطلق كل هذه الحيوانات على المجرمين وعلى
المعارضين السياسيين . والناس يصرخون فى متعة ، أو يستمتعون
فى صراخ . ويطلبون المزيد ..

وأول مصارعة بين الانسان والحيوان شاهدها روما كانت
فى سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا .
ولكن هذه الرياضة الدموية قد أتى بها الرومان من العراق . فقد
كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الانسان للحيوان ، وذبح
الحيوان للانسان ، عاد الرومان الى رياضات هادئة . عادوا الى

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نيرون اول من فعل ذلك . ثم عاندوا الى الفزلان وعلقوها في العربات . والنمور والأسود .. ثم الفيلة .

والاسكندر الاكبر قد شاهد الفيلة في معاركه . وخصوصا في الهند . ولاحظ الاسكندر ان الفيلة شكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك امر جنوده بأن يحتموا في الفيلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وذلك بأن يجعل الفيلة في مواجهة العدو ثم يكويها فتفطلق هائجة تمزق خطوط عدوه وتأخذ معها فيلة أعدائه أيضا . وعدل عن استخدام الفيلة في المعارك . واكتفى بأن جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور أطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال ان هذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيى جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه !

والقائد هانيبال عندما أُرهب أوروبا بقواته كان يدفع أمامه خمسين فيلا .. ولم يصل منها الى نهر الرون في فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الالب لم يبق منها سوى ثمانية .. وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد .. ولكن الرومان كانوا قد أستعدوا له أيضا بعدد من الفيلة .. ثم عدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السرك للفرجة عليها ..



نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقد سئل في احدى ولائمته وهو يقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة اولاد حيوانات .. فالحيوانات تأكل النباتات

ونحن نأكل الحيوانات .. ثم نحن نموت فى الأرض وعلينا تنمو
النباتات .. وسوف يجرى يوم نأكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش
الحيوانات على النبات حتى تفنى فيأكل بعضها البعض ولا يبقى أحد
فى هذه الدنيا .. لماذا ؟ لأن هناك معدة تأكل معدة أخرى ..
والأرض هذه هى أكبر معدة عرفناها !

وكان هذا الرجل الذى اشتهر بأنه صاحب أكبر معدة فى
التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الأطباء وعلماء الحيوان والنباتات
والفلك ، لأنه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !



وراء جنتك زخانة سبع مليون مصان !

لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام
لاستراحت منهم اوروبا مئات السفين - عبارة
قالها مؤرخ اغريقى وهو يصف هجرة القبائل
البدائية الآسيوية فى القرن الرابع الميلادى .
فهذه القبائل قد تركت بلادها متجهة الى اوروبا
غربا ، ومتجهة الى الجنوب . وليس معروفا
بوضوح لماذا هاجرت هذه القبائل . ولكن
المعروف انها قد ركبت الخيول فكانت حركاتها
اسرع واخطر .

وقد وصف المؤرخ الاغريقى هؤلاء الآسيويين بأن اشكالهم دميمة .
وشعورهم منكوشة . وانهم لا يأكلون الا اللحم النيء وانهم
لا يغسلون ايديهم أو وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على
النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم انهم يحبون الذهب وانهم من
اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربما كان هذا
التقديس للذهب هو الشيء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

وهى صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيويه راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها ترنمها الفنى والادبى وطقوسها الدينية .. وهؤلاء « الوحوش » أكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين فى ذلك الوقت .

وبسبب هذه الخيول التى لديهم أقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة أما هذه الخيول التى ركبوها واقاموا عليها قوتهم وعروشهم فهى متوسطة الحجم . صغيرة الرأس طويلة الشعر ، وظهرها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت فى الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الاسيويون ككل الرعاة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا يأكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول قوتهم فى القتال والهرب .

وفى ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال ان الخيول رُمست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة . ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الألوف قد عجلت بانتهاء الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحمولة » على اربع والقادمة من قلب آسيا هى التى هدمت الامبراطورية الرومانية . ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت قادرين على مواجهة الزحف الاسيوى كما ان الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الرومانى به فارس واحد لكل عشرين جنديا .. او به حصان واحد أبيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية أبطأ فى الحركة وفى الهجوم وفى الانسحاب .

وقد وجدنا فى التاريخ ان الفرسان الجرمان يطلقون على أنفسهم كلمة « رينر » ومعناها : راكب .. فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان بسمون راكب الحصان « اكوبس » — وهى كلمة

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصان فارسا .
ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوربيون « ركابا » فقط !

وفي أوربا في ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من
يركب الحصان أو يملكه . ولم يكن يملك الخيول الا الاغنياء أو
النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذى يركب الحصان . فهو يستمد
حربته من قدرة حصانه على الحركة والجري والهرب . . ومن
التعبيرات الشائعة في ذلك الوقت : اركب حصانك . . أليس لك
حصان ؟ لو كان عندى حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة !
ركب فلان أسرع خيوله وهرب . .

وجاءت القوات الاسيوية الراكبة وأسقطت الامبراطورية
الرومانية الواقفة أو الماشية أو الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية في أوربا ألف عام بعد ذلك .
وكان سلاح الفرسان هو السلاح الافضل . وكان سلاح ابناء
الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلته المدرعة ويركب حصانه . .
والبدلة غالية والحصان أغلى والموت بعيد عن هذا الفارس .
ولا يستطيع أحد أن يحمى نفسه هكذا الا اذا كان غنيا . فالمشاة
فقراء والفرسان أغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربية الا حيوانات غليظة ضخمة .
خطواتها ثقيلة . وأشكالها دميمة . . ولكن أوربا عرفت بعد ذلك
أن تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن
شبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهرت الخيول
العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاقتها وروعته . .
ولم يعرف الاوربيون هذه الكائنات الرائعة الا بعد أن اتصلوا
بالعرب . . وقرأوا عن عهق العرب لهذه الخيول . . بل أن أمير

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب العربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم اول من اهتدى الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وانما هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . او العاشق الذى يضحي بحياته من أجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هى الحب . والحب هو الحياة . والحياة هى أن يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب فتسقط على جثمانه دمة واحدة . بل أن دمة واحدة كثيرة . لأنه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان أوربا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العفيف أو الحب « الافلاطونى » الا من العرب . فعند العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هى الفروسية .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان الشعراء المتجولين « الطروبادور » أى شعراء الطرب — لم يتعلموا فن الصعلكة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وانما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته . . طرف ثوبها . . وهو لا يفضحها وانما هو ينفنى بها ويقيم لها حفلات التكريم . . فهو محطة اذاعية . . هو فيلم . . هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول . . وفيهم اخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه السلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان — ككل العرب — يدعو الى

حب الخيل والى اقتنائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان يدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل . . وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحصار . . وفى المكان الذى وقف فيه البراق أقام عمر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد أقيم فوق حطام معبد سليمان . .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة « الخيل » . وهى ترد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو . والقرآن الكريم يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل نرهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيول : البقرة والنحل والنمل والانعام . أما سورة « العاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة نقول : « والعاديات ضبحا . فالموربات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها واثارتها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه السورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك أقصى درجات التكريم . .

والعربى يستمد نبلة وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد أيضا كبريائه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بأنه أكرم العرب لانه ذبح حصانه لاهد ضيوفه !

وعمر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ ان يركب حصانا وانما ركب ناقة وعلى هذه الناقة وضع طعامه من الماء والتمر والقمح . ودخل القدس حانى الرأس . ولم يركب حصانا بتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية — أى روح الشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة قرون جاء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق اوربا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العرب على أن هناك حضارة أخرى . . أو شعوبا أخرى تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الحضارة الاوربية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بأنه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

وأصبح من المألوف فى أوروبا فى ذلك الوقت أن الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الأرض وحصانا . أو يملك حصانا دون أن يملك أرضا أو يملك الحصان والبدلة المدرعة دون أن يكون جنديا فى أى جيش . وانما يكفى أن يكون هذا « عاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بدلة من حديد . . وهو بكل مقاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوروبا تربية الخيول . واستخراج السلالات الجيدة منها . لأن الخيول التى هاجرت الى أوروبا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . أو قبيحة التكوين . وقد أحس الاوربيون بذلك اثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذه الخيول

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الابقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظاهر الثراء والقوة . ولكن اوربا لم تعرف « الفروسية » او رياضة ركوب الخيول . واذا حدث ان اراد بعض الفرسان ان يتريض جاءت هذه الرياضة عنيفة دموية . فيلتقى الفرسان ويتحاربون . وتكون النهاية دموية مميتة . ان الملك هنرى الثانى ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١٥٥٩ . ولم يكن ذلك فى الحرب وانما كان فى معركة مع احد الفرسان . ولم يكن ذلك الا على سبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسا اسمه جيوفروا دى بروى هو اول من وضع لرياضة الخيل او للفروسية قواعد واصولا وطلب من كل الفرسان ان يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدى الى الابقاء على حياة الفارس والحصان . وان تكون استعراضا للخفة والسرعة والمناورة دون دماء !

والتاريخ الذى كتبته الخيول فى حياة الانسان والشعوب كلها طويل جدا — انه يشبه تاريخ الدبابة والمدرمات والطائرات . فالخيول هى دبابات وطائرات الانسان من الوف السنين !

واذا كان الانسان قد استخدم الخيول فى الرعى وفى الصيد ،فانه استعان ايضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ذراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجرى وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد اوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الاخرى او على الارانب او على الغزلان . ويقف على رأسها ويرفرف بجناحيه

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . أو يضربها في رأسها أو يفقأ عينيها . .
حتى يجيء الصياد ويمسك الفريسة، ولا تزال هذه الصقور وسيلة
من وسائل الصيد في مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلاً من أن
يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فإنه يطلق
الصقر لكي يمسكها وهي حية دون أن يشوه مكانا واحداً من جسمها .

وفي العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد
الخنازير البرية . ففي فرنسا ، وهي كبرى الدول الزراعية في أوروبا ،
قد أزهقتها حروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما يأكلونه من
الخضراوات والفواكه والحيوانات . وحتى أصبح من الضروري
أن يلتزم صاحب البيت أو صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته
والأفان يجد احدا يعمل لديه . ففي سنة ١٤٣٣ صدر قانون يقول :
واللخادم أن يأكل اللحم مرتين في الأسبوع وأن يشرب زجاجة نبيذ .
وفي أيام الصوم يجب أن يجد السمك .

أما الأغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء
من لحوم : الخنزير والبقر والأوز والبجع والشواء والمسلوق وكانوا
يأكلون الطاووس أيضا (وقد فعل ذلك شاه إيران عندما أقام
مهرجانه التاريخي بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرناً على تأسيس
الملك كوروش للدولة الفارسية . .)

ولكن طائراً واحداً نجا من الموت : الصقر .

ويقال أن المؤرخ الإغريقي كتسياس وكان طبيباً خاصاً للملك
الفارسي أرنكسركس في القرن الرابع قبل الميلاد ، هو أول من نقل
الصقر إلى أوروبا . وأول من استخدمه في الصيد . ولكن هذه العادة
لم تنتشر في أوروبا إلا بعد أن هاجر الآسيويون إلى أوروبا . وعرف
الغرب أن الصقور يمكن استخدامها في صيد الذئب التي تهدد
قطعان الأغنام والابقار . .

وفي احدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا برأسه .

كما أن الملك فريدريش الثانى ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وانما اصدر كتابا فى تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفى الكتاب يحدث القارىء عن اخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل اطلاقه على الفريسة . ثم مكافأته بعد ذلك بأن يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذى يقرأ كتاب الامبراطور يشعر بأن تدريب الصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من انبل الاعمال فى ذلك الوقت .

والفراعنة أنفسهم كانوا يرمزون بالصقر — حورس — الى السماء . . او الى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له عينان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر فى أعلى مراتب القداسة عندهم . .

وحيوان آخر رافق الانسان سنوات طويلة . او كان اول من صادقة ؟ الكلب . وكان الانسان يستخدم الكلب فى حراسة الاغنام ، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وانما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حيوانا محترقا رغم احساس الانسان بفائدته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم فى غرف الخدم . ولكن فى العصور الوسطى ظهرت الكلاب فى قصور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب فى لوحاتهم الفنية . وظهرت أنواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستمد « مكانته » هو ايضا من مكانة سيده . بل أن الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب . فاذا كان السيد مثل « فيليب الطبيب » دوق يورجانيا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمى سيده ، واذا كان السيد شريرا مثل « شارل

السيء « ملك مقاطعة نفارة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يقضم الطعام عند قدمى سيده .. »

وظهرت حيوانات وطيور اخرى كثيرة فى اللوحات الفنية بل وفى النقوش القديمة . ففى احدى مقابر الملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشا به تسعة وعشرون نوعا من الطيور .. وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد نحتمس الرابع نجد نقوشا لطيور كثيرة .. كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشا مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر أو حيوان خرافى . فالمؤرخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو أن وحيد القرن لا وجود له . ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابقار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعزلة وقوة الفضيلة . وذهب القدماء الى أبعد من ذلك فتصوروا أن قرن وحيد القرن هذا يحقق المعجزات . وأن الذى يحتفظ به تحدث له البركات .. وأن الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة جنسية هائلة .

عجيب أمر الإنسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكليسها ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شيء جديد يقديسه تمهيدا للقضاء عليه .. وهذا ما فعله بنفسه أيضا !



خنازير كولمبوس ! مدت العالم الجديد .

مع اكتشاف أمريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التي حملها كولمبوس معه قد أصبحت الآن مئات الملايين في العالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف أمريكا عملاً بارعاً بالصدفة ، ولكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب أن نذكر دائماً أن الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطئ العالم الجديد . فالصيادون من أبناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » أي الأرض الخضراء ولم تكن الأرض خضراء عندما اهتدى إليها « أريك الأحمر » وإنما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس إلى الحياة فيها . وكان هو وابنه أول من أقام فيها . وبعد ذلك تكاثر المهاجرون جيلاً بعد جيل ..

يقول « أريك الأحمر » في مذكراته : كنت أطلب من ابني أن يقوم بدور الكلب وأحياناً بدور الدب ، لنشعر نحن أن هناك كائنات أخرى ترانا أو تخافنا أو تعمل لنا أي حساب ! ..

ويقال ان « أريك الأحمر » هذا اسنطاع ان يصل في مغامراته البحرية الى شواطئ أمريكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهدى الى هذا المكان النائي لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه عن بعد ..

وبعد ذلك توالى مغامرات أبناء جنوه الايطالية ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الاطلسى . لماذا ؟ لأن لديهم معلومات ما ، بأن شيئا ما ، يوجد فى الناحية الأخرى .. ما هو هذا الشيء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهند . او بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر ماديرا وجزر الأزورس .. ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين أو أسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهية الصارخة وأصواتها المفردة هى أهم ما رأى وما سمع الأوروبيون . فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا .. وجزر أزورس أيضا . فالكلمة البرتغالية « أسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الأوروبيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى أدبهم وشعرهم وأغانيهم وخرافاتهم أيضا .

وأول ما واجه الأوروبيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقيرة . وأن أهلها بدائيون متخلفون تماما . ولذلك احتاج الأوروبيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الأليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلات بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حسابهم .

فميتلا عندما نقلوا الارانب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة »
تكاثرت بمئات الالوف في سنوات قليلة ، حتى اكلت ما في الجزيرة
من أعشاب ، بل انها كانت تتسلق الاشجار وتاكل أوراقها
الخضراء . .

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينه من
بعيد يجد سطحها يتحرك . . يعلو ويهبط ، كأن أمواج المحيط قد
استقرت فوقها . فاذا اقترب منها أكثر وجد ان الذى يتحرك هو
موجات من الارانب !



نفس التجربة حدثت عندما اكتشفت استراليا . كانت الارانب
قد اكلت المزارع فأتوا لها بالقطط . فأكلت الارانب وأصبحت القطط
منوحشة . فأتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئاب متوحشة
ويقال انهم فى استراليا قضوا على الكلاب التى قضت على القطط
التى قضت على الارانب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة . .
وفى الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهند يحتاجون الى جلود
الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعابين تاكل الفئران التى تاكل
محصول القمح والذرة . ولذلك أصبح ممنوعا صيد الافاعي لأنها
تقضى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الأوروبيون الجدد لهذه الجزر أو لهذه الاراضى
المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعامهم . وإلى ضرورة معرفة
الحيوانات والطيور الجديدة . وان كان فى الامكان ذبحها أو تصديرها
الى أوربا . . وبعد ذلك معرفة حدود الأرض الجديدة والبحث
عما فيها من ثروات طبيعية .

واذا كانت الأرانب هى أول المهاجرين الأوربيين الى العالم الجديد ، فقد جاءت بعد الأرانب الأبقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البذور .

وكولبوس عندها اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل فى سفنه بعض اللحوم والأسماك الجافة . . ولكن رحلة كولبوس الأولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته النائية الباهرة ويقول كولبوس فى مذكراته بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكنارى : ظللنا طول الليل نسمع أجنحة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جدا »

وبعد ثلاثة أيام توقف كولبوس عند جزيرة هى جنة الطيور . كل شئ فيها غريب عجيب . أشجارها وأرضها وثمارها . وأهم من ذلك كله عدد لا نهائى من البيغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى أوربا . ووجد بالصدفة بعض الأحجار اللامعة على الشاطئ فظن أنها ذهب . ولم تكن كذلك . وأيقن أنه قد اهتدى الى الهند . وكولبوس هو الذى أطلق خنازيره فى الدنيا الجديدة . . وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه . . وبعد مئات السنين أصبحت الوف الملايين . . طعاما سائغا للرجل الأوروبى والأمريكى . .



ومما حمله الأوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . فخافوا أول الأمر . وبعد ذلك لم تعد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون أن الحصان وراكبه كائن واحد .

ولما تشجع الهنود الحمر وأطلقوا سهامهم على الأوربيين سقط منهم الكثيرون على الأرض . واندعش الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان — أى الحصان وراكبه — يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك أيضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان أهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولما راح يدخن السجائر ، أدهشهم كيف أن النار فى أحشائه ولا يموت . . ولما قتلوا رجاله البيض فزعوا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الأوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاء الوحوش الذين جاءوا عبر المحيط يدوسون أرضى المقدسة ؟ ويذبحون أجدادى وينهشون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ . . ان أجدادى متحذرون أما هؤلاء القادمون من وراء البحر فوحوش بربرية . . !

واهتدى الإنسان الى حيلة أخرى غير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . وأخذوا يطلقونها على قبائل الانكاس . وكانت الكلاب تمسك بهم وتعوقهم لتصيبهم نيران الاسبان . وعرف الانكاس حيلة أخرى جديدة . كان الواحد منهم يتغطى بمواد مسمومة فاذا هجم عليه الكلب مات لتوه . أما لماذا لم يمت الانكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعرفه أحد بعد .

ويصف لنا المؤرخون الاسبان كيف راوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال أحد المؤرخين : وكان قصره قطعة

من الجحيم . تعيش الأسود والنمور فيه ، وترى الطيور الصارخة .
والطيور المفردة والطيور الجارحة . . وفيه أخطر من هذا كله :
أنواع عجيبية من الأنعام التي لها ريش . وكانوا يضعون الأنعام
في الصناديق ثم يلقون إليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك إذا
زاره الضيوف أو الأوربيون الجدد ، أن يقدم لهم الطعام وسط
هذه الوحوش . وكان حريصا على أن يجعلها جائعة فتعوى وتنبع
وتصرخ — أما الثعابين فيكون لها فحيح قريب رهيب .

وفي الرسائل التي وجهها كولبوس الى الملوك الكاثوليك في أوروبا
سنة ١٥٠٣ ، وكان في ذلك الوقت في جامايكا يقول : ان في هذه
البلاد أسودا وقطعا ضخمة في حجم الإنسان نفسه .
وفي هذا العالم الجديد لا أحد يشرب اللبن أو يذوق لحم الحيوانات
— الأغنياء والنبلاء ورجال الدين فقط — أما بقية الناس فلا قدرة
لهم على هذا الترف العظيم .

* * *

وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل أطلقوا عليها اسم
أرض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » في اللغة البرتغالية
تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذي يخرجون منه الصبغة الحمراء .
ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة
البرتغاليين أن يدرسوا ويسجلوا ملاحظاتهم على كل الطيور
والحيوانات والنباتات التي تلت عيونهم . بينما كان الأسبان
مشغولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من أن الثمار في العالم الجديد كبيرة الحجم ، فإن
الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعرف
الفيل الهندي الحبشى ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وإنما
في العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضيق المستعمرين
الجدد سوى الحشرات التي تلتسع . وسوى الأنعام التي تمص
دمهم في الليل .

أما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان آكل النمل .

وبعض القبائل تأكل الانسان نفسه وعندها أسباب كثيرة لذلك . أما أن يكون ذلك بدافع الانتقام . . أو بدافع المحبة . . فنجد القبيلة تأكل شخصا من قبيلة أخرى ، ومعنى ذلك أن دمها واحد . وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلة بالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل إذا أسرت عدوا أن تكرمه فتعطيه الطعام الذى يجعله أسمن . بل أن بعض القبائل عندما كانت تأسر الأوربيين كانت تحبسهم وتقدم لهم أفضل الطعام وتقدم لهم بنسات القبيلة ليكون زواج وأطفال . أما الذكور — فلأنهم أولاد الرجل — فيأكلونهم . أما الإناث — فلأنهن بنات المرأة — فلا يأكلهن أحد . ثم لابد من أكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل أوربى وقع فى الأسر . ورفضوا أن يأكلوه رغم ما قدموا له من طعام ، لأنه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوروبيون هذه الوحشية ، فأصدروا القوانين التى لا تحرم قتل الانسان ، وإنما تحرم أكله . وبينما صدرت هذه القوانين كان بعض الأوربيين يبيع للهنود الحمر سكاكين أكبر لى يتمكنوا من ذبح الانسان بسهولة !

ولم تتوقف هذه الأعمال الوحشية إلا عندما انتقلت الأبقار والجواميس والأغنام من أوروبا لى تكون فسادا للانسان من الانسان . . فماتت هذه الحيوانات من أجل أن يعيش الانسان يربىها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

كل عصر له خرافاته الخاصة!

كانت الملكة كاترين بمدتيشى شديدة القلق .
وهذا طبيعى جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت
إذا نظرت الى احدى الوصيفات تسال عن شيء ،
ترد عليها الوصيصة وهى تضحك او وهى تغمز
بعينها ، وفى كثير من الاحيان كانت الملكة تسال
قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل ان تكمل
سؤالها يجىء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الاربعين
فصا ..

وتسال الملكة : والصندوق الـ ..
فترد وصيفة اخرى : جاء الصندوق البيضاوى وبه كل
المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .
وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الابدية » هل
هو ايضا .. ؟
— نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد ألف عروس
فى ألف ليلة .. !

— و —

— نعم جاء وهو الآن تحت المخدة ..

— و ..

— نعم يا مولاتى .. وأنا التى وضعتة بنفسى فى كأس الشمبانيا
التي سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد
اعددنا لسعادتكما الليلة كل شيء ..

— وهل نسيت ذلك الذى اهدته لى الامبراطورة لانتاولة قبل
النوم بلحظات .

— موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دميتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات
من أجل ليلة العمر مع احد ملوك فرنسا . وانما كانت قلقة على
شيء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه أمام الوصيفات
الايطاليات والفرنسيات .. وأخيرا تشجعت وقالت : هل جاء
الكاردينال .. ؟

وصرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعاً يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة وأحس الجميع أن هذا الذى
جاء أهم من كل شيء سمعته حتى الآن . أما هذا الكاردينال فقد
حمل رسالة خاصة من ممها كليمنت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعدما بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال
ادخلوه فوراً للغرفة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورفع
الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل
العلبة الذهبية مسحوق نادر .

ان هذا المسحوق هو معالجة طبية لجزء من قرن خلعه من
رأس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالملكة اذا أحسبت بالسم قد وضعوه
لها فى طعامها ، فانها بسرعة تضع المسحوق على شرابها أو
طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة .

* * *

وكان ذلك فى القرن السادس عشر فأوربا كلها تؤمن بأن قسرن
وحيد القرن قادر على شفاء الناس من أكثر الأمراض خطيرة .
ولذلك فهو هدية من بابا روما — وهى هدية أغلى من كل الهدايا
وأهم .. !

وحوانات أخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعد
اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمريكا ، بينما
الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى أوربا . وإذا كان كولبوس قد
أهدى أمريكا ثمانية من الخنازير ، فان أمريكا قد أعادت الى
الخنازير الأوروبية طعامها ، بل ان أمريكا هى التى انقذت خنازير
أوربا . . فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا،
انتقلت الذرة الى أوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب
أيضا . صحيح أن أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى أمريكا ،
ولكن أمريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة، مستخدمة
العبيد من أفريقيا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد أدى ظهور السكر
فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

فى التاريخ نجد السكر الذى هو ناتج نباتى يطرد العسل الذى هو
ناتج حيوانى .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرهما من الاطعمة قد ادت الى انقاذ
حياة الملايين من الطيور والحيوانات التى اعتاد الناس فى اوربا
ان ياكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معسرومة تماما فى اوربا . .
وقد رأينا فى القرن السابع عشر الامراء يتهادون بالبطاطس على
انها شىء غريب عجيب . بل ان بعض الاطباء فى ذلك الوقت قد
امتى بتحريم اكل البطاطس لانها تؤدى الى الامراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومى فى اوربا ، قادما من امريكا بكميات كثيرة .
وربما قيل ان الديك الرومى ليس جسيديا على اوربا ، فالانجليز
يسمونه الديك التركى . والانجليز عرفوه عن طريق الشرق الاوسط .
ولكن النسوع الذى جاء من امريكا كان اضعف واكثر تنوعا ، وكان
لظهور الديك الرومى اثره الكبير فى الحياة الاوربية . . فى حفلات
الامراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى ادب البسلاط فى اوربا
يجد الديك الرومى صاحب الصفحات الاولى والعبارات الاولى على
السنة الرجال والنساء . كان يقال مثلا : جميل الديك الرومى
واجمل منه ان ينظر اليه الانسان فى عينيك !

يقال هذا الكلام عادة لفتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدى
ان تحنى الجميلة رأسها ، وأن يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأسه
على يديها ويقبلها . . ويمضى الكلام عن الديك وبقية الاطعمة .
وينتهى مثل هذا الكلام عادة بأن تكون هذه الجميلة قد وقعت فى
غرام هذا الذئب الذواق للطعام والجمال !

* * *

ومع هذه الحيوانات الواردة من أمريكا ظهرت أمراض كثيرة .
في مقدمتها أمراض الزهري والسلان التي نقلها كولبوس ورجاله
الى أوربا — هذه حقيقة مؤكدة !

وأطلق الانجليز عليها : الأمراض الفرنسية . والفرنسيون
وصفوها بأنها : أمراض انجليزية !

وفي مذكرات كولبوس نجده يقول مثلا : وفجأة شعرنا بظهور
دمامل .. وفجأة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما
معينا أدى الى ظهور هذه الأعراض الغريبة !

ولم يكن كولبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهي لا تجيء
بعد الأكل وإنما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول أحد بحارة كولبوس أن « يتفلسف » فوصف هذه
الأعراض ، ولكنه عندما أراد أن يجد لها سببا معقولا قال : بسبب
النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن أهم ما ظهر في الفكر الأوربي الأدبي والحيواني أن هذه
الرحلات الى العالم الجديد قد أدت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام
عجيبة الألوان . هذه الحيوانات يؤكد كل الناس انهم رأوها
بأنفسهم . وأنهم لم يسمعوها عنها من أحد . وكل كتب القرون الـ ١٥
و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد فاضت بهذه الكائنات الغريبة . فعشرات
المغامرين الكبار يقولون انهم رأوا الثقب الذي له رأس انسان ،
أو الانسان الذي له رأس ثقب .. وأنهم حاولوا صيده . وأنهم
قتلوه ، ولكن جاءت ثياب أخرى وحملت جثته ودفنتها في ضوء القمر !

وأكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة . وهم يتغنون في وصف هذه الحيوانات المائية أو البرمائية (وأذكر أننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « ألف ليلة وليلة » أعلن كثيرون من الأنبياء أنهم شاهدوا عروس البحر . . شاهدوها واقفة وجالسة ، وأنهم يقسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد أقسموا على ذلك أيضا . وتؤكد بعض الكتب أن هناك نوعا من الأفاعى طولها ٥٠٠ قدم . وأن هذه الأفاعى تلتف حول السفن فتسحقها وتبتلع ركبها واحدا بعد واحد . فإذا امتلأت هذه الأفاعى بالطعام يستطيع الطفل الصغير أن يقتلها بقطعة حجر ! ولكن أين يكون هذا الطفل وكيف يمكن أن يقتلها ؟

إن الكاتب أولاس ماجنوس قد أصدر كتابا في سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهذه الأفعى الكبيرة .

وفي القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث عن عريس البحر — سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل إلا الزئوج والهنود الحمر . .

أما عروس البحر فلا تأكل إلا البيض . . ويقال لا تحب من لحوم الأوربيين سوى لحم الأسبان ! وإذا كان عريس البحر يأكل عيون الفريسة فإن عروس البحر تأكل قلوبهم . . تماما كما أن سمك القرش يأكل الذراعين والساقين . . وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة غريبة يستقر على جسم الإنسان . ويلتصق به ولا يأكل إلا نهود النساء — الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيودوت المؤرخ الإغريق هو أول من وصف لنا طائر

« العنقاء » وقال أن هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شسبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث مات أجداده . ويظل يبكى على أجداده في مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شسبه الجزيرة العربية ، في مكان ما منها :

وتقول الكب الأوربية في القرن ١٦ أو مؤلفيها راو العنقاء هذه . وان العنقاء قد لفت حول عنقها شعباناً ضخماً . هذا الشعبان اذا نظر الى اسنان تحول الانسان الى حجر . . او ما يشبه الحجر . وبسرعة ينقض الشعبان على الانسان يمتص دمه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشللىنى هذه المعانى وروى هو نفسه قصصاً من هذا النوع ، ويقسم أنه رأى ذلك بعينه — كلهم يقسمون على ذلك ويطلبون منا أن نصدقهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد في مذكراته أنه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعتزلها على اثر بعد ذلك . . ودافنشى ليس عبقرىاً مخرفاً ، وانما هى حالة نشاط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى . . انها « حالة سريالية » أى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع — كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد . .

وشىء من هذا قد أصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف أمريكا . .

وقد ظهر عند الاطباء جنون جديد لعلاج كل الأمراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الأمراض . من ذلك مادة فى مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء فى أيدينا . . وأحياناً يستخرجونها من الحسوات فى كلية الغزال . هذه المادة أطلق

عليها الفيلسوف العربى ابن سينا مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربى ابن سينا ، قد شخص الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء . . وهذه المادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهباً . . أو أضعاف وزنها ذهباً . ولا أحد يعرف أن كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئا !

وظل هذا « الوهم » سائدا مئات السنين . . ولكن استطاع أحد الأطباء فى بلاط الملكة كاترين دميترى أن يثبت لها أن مسحوق قرن « وحيد القرن » ليس ترياقا يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى الديك هذا المسحوق السحري فمات الديك رغم ذلك . . ولكن أحدا فى بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب « المخرف » .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلفت حوله يسأل الكرادلة أن كان أحد قد وضع له السم — فأنحنوا وبكوا وقالوا : أعوذ بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الانسان ، أن واحدا من الحواريين حول المسيح قد سلمه لاعدائه . . فليس غريبا أن يقتله واحد من الذين حوله . . وكان أحد الكرادلة أسرع الجميع الى فهم ما يدور فى رأس البابا فأسرع وأتى بمسحوق القرن . . ووضع فى كوب من الماء . . ثم وضع كمية أخرى . . وظهرت السعادة على وجه البابا . . وشرب الكوب ومات . . وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أرادوا

ان يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى ان السبب الحقيقى هو مسحوق
القرن السحرى !

ومات البابا وسره معه . . ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك اطول
عمرا من البابا ، لانها تنبع من جهل الانسان بما لا يعرف ورغبته فى
ان يعرف بسرعة . وكل عصر من العصور له حقائقه الجديدة ،
واوهامه الجديدة . . فلا عصر بلا خرافات !



ذهب كل أرض ندوسها الأغنام !

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد شعبها . فظلت تفكر في احسن الطرق . ولم تهد الى شيء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا . ماذا رأت في نومها ؟ رأت دودة صغيرة تمشي بين اوراق الشجر . ثم تاوى الى بعض الاوراق عندما يخرج من فيها خيط ناعم . . وتظل الدودة تفعل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه هى التى دفنت نفسها . ثم بعد ان تموت تصحو مرة اخرى . . لتموت بعد ذلك . . وذهبت الأميرة الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمانها رجل الدين قائلا : ستكون لك حماة قاسية القلب . تحاول ان تدفنك حية . ولكنها هى التى ستموت في النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . فذهبت الى كبير الكهنة . وقال لها : ان الذى رأيت في نومك حقيقة . اذهبي الى الغابات وابحثي عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

وعثرت الأميرة على دودة القز ..

وأصبح دود القز سرا ملكيا منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ..
وكانت للصين أعياد للحرير . يتهاذى فيها الناس دود القز وبعض
شرانق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين
تضمن بهذه الدودة على كل الشعوب الأخرى وكان يكفى أن يقال أن
مواطننا أخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصدر قرار بأعدامه
فسورا .

وتسالت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان
أصبحت صناعة الحرير ونسيج خيوطه من أهم مخصصات الأسرة
المالكة .. ويقال أن الامبراطورة اذا غضبت لسبب ما ، وكثيرا
ما كانت تفعل ذلك مما أدى الى قصف عمر زوجها ، فانها تأخذ ديدان
القز معها وتظل تتأمل قدرة الله ..

ويقال أن إحدى الامبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته :
« حياتى كهذه الدودة .. هادئة ناعمة راضية . وفى النهاية ماذا أنا
الذى أعمل وأنا الذى أغطى بأكتاف من الحرير وأموت فى صمت
فالصمت حياتى والصمت مماتى .. ولاأحد يدري بذلك » مفهومطبعاً
أنها تريد أن تقول انها تتعذب وتعمل وتموت دون أن يشعر أحد
بوجودها — زوجها وأولادها طبعاً . والشكوى من الرجل والأولاد
قديمة وتتجدد فى كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوربا الحرير هذا الا بعد ذلك بالوف الستين .. فملايس
الافريق والرومان بسيطة جداً . وعندما عرفوا الحرير كان ذلك شيئاً
نادراً . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والباطرة . وفى نفس الوقت

كانوا يرون أن هذه الملابس القاعمة لا يصح أن يرتديها الرجال .
لأنها ناعمة لينة . ولا يصح أن ترتديها النساء لأنها تكشف الجسم .

وفي القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والافريق قد عرفوا الملابس الداخلية وإنما ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما أقبل الرجال على النساء . وفي بلاد الافريق أيام الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، كان المثل الأعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفي هذا العصر انشغلت المرأة عن أرضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه إليها الرجل ، بدأت المرأة تختفى وراء ملابس داخلية وخارجية .. وكلما التفت الرجل إلى المرأة أكثر عرنت الملابس الضيقة التي تكشفها وفي نفس الوقت تغطيها أيضا . فمع الميل الجنسية الشديدة عرنت المرأة الأقمشة الحريرية .. ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالي الثمن ..

ان الامبراطور يوليوس قيصر قد اشترى قمائسا حريريا ليزين به احد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل اتنا نقرا في احدى المحكمات من يقول :
ولكن كيف اصدق رجلا يرتدى ملابس حريرية .. انه ليس رجلا !

أما الامبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجبالوس السورى ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الأحمر في احدى الحفلات . والتفت إليه الناس بدهشة . ويبدو أن الامبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الأرض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذى عرفته أوروبا في أوائل العصور المسيحية

قد جاء من الصين . انه نوع ردىء من الحرير . ولكنه غالى الثمن . .
اما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بآلف سنة . ووصل الى
أوروبا من طرق مختلفة . .

فالإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع
اثنين من الرهبان على أن يخفيا الحرير فى ملابسهما . وجاء الراهبان
وقد حمل كل منهما عصا مفرغة ، أخفى فيها بيضات الحرير . ودخل
الحرير الى بلاد الإمبراطور وتولت زوجته الغانية الفاتنة الفاجرة
ثيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات
أعدتها لخدمة القز . وكانت الإمبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن
يستطيع ذلك . ويقال أن الإمبراطورة ثيودورا قد تعاونت مع أحد
أمراء الحبشة على زراعة أشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت
الأشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت
الإمبراطورة غزل الحرير وحرمته على كل الناس . وكانت الإمبراطورة
تستمعين بالمغنيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الإمبراطورة ثيودورا كلما فرغت من عمل ثوب
حريرى أقامت حفلة خاصة للملك . وأتت بالراقصات والمغنيات
ورقصت هى أمام الإمبراطور فى ثوب من الحرير ثم أتت بثوبها وألقت
به فى برميل النبىذ . . وراحت تمشى عارية تعصر النبىذ فى أفواه
الضسيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبىذ » . . أو « النبىذ من
الحرير » . . وكانت لهذه الإمبراطورة أيام أخرى كثيرة . ولكن أروعها
هى ليلة : عصر الحرير !

وكانت هناك امبراطورة أخرى اسمها نيودويسيا . هي أول من ابتكر مسابقات الجمال في العالم . . أو اخنيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدمو كل أسبوع أجمل عشر فتيات لبختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعاً وقد ارتقت كل منهن فستقانا من الحرير . ويرحن ويجئن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على أماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب أنه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يضقن بما لايفعل الأمير . فقد أسعدهن جدا أن يقع عليهن الاختيار وأن يتعرين أمام أمراء وشبان آخرين . .

كل ذلك بعد أن تكون كل واحدة قد خلعت أكثر ملابسها الحريرية التي تدل على أنها من أسرة قادرة على شراء فساتين من الحرير الصيني !

وأصبح العالم كله يتحدث عن طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذي يبدأ من بكين مارا بالهند وإيران وتركيا . . وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال افريقيا الى أوروبا في القرن الثامن عن طريق العرب . فالعرب أدخلوا صناعة الحرير الى ايطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة في الاجواء الباردة . فماتت بالملايين . وكذلك أشجار التوت لم تتحمل البرودة والجليد فذبلت . ولكن استطاع الانسان أن يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت أوروبا الملكة اليزابث وهي ترتدى جوربا من الحرير،

صنعتة احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة أصبح ماركة للقمصان الانجليزية : مونتاجى . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير من اسبانيا . وظلت انجلترا تستورد الحرير من اسبانيا فى أشد الظروف قسوة ، وفى نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف الى الخارج . . وبينما كانت اسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا تحتكر اغنام الصوف .

وفى سنة ١٥٩٨ أعلنت الملكة اليزابث فى احدى الحفلات الرسمية أن لديها ستة أزواج من الجوارب الحريرية . ويبدو أن هذا خبر شخصى جدا . ولكن الملكة أرادت أن تقول أن هذه هى البداية . . وسوف تظهر جوارب أخرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت طويل !

فى ذلك الوقت كان أحد المهندسين الانجليز واسمه « لى » يعانى من أزمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليها تنسفل عنه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهى لا ترد . واذا ردت فاتها لا ترفع رأسها لكى يرى عينيها . ان عينيها تركرتا على شئ فى يديها . أنها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا أو شالا . . ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهى أيضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام بينهما . أو هو الذى يتكلم وهى التى تسمع دون أن تقول شيئا . وانكسر قلب هذا المهندس . واختفى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب مقابلة الملكة اليزابث وأذنت له . وقدم لها جهازا من اختراعه يعنى المرأة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته أن تفعل ذلك . وان تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت أظنك قد اخترعت شيئا لغزل الحرير .

وقال المهندس : أعمل ذلك حالا !

واختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لغزل الحرير حتى لا تنسفل عنه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هذا الجهاز سوف يجعل الحرير في متناول كل الناس . وهي تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم ان مغازل الحرير او المصوف سوف تؤدي الى تعطيل الوف الأيدي العاملة . فذهب الرجل الى فرنسا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسا كانت مشغولة في الأحداث التي أعقبت اغتيال الملك هنري الرابع . . وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره . . انها الآن لم تعد تغزل لا المصوف ولا الحرير — لقد فقدت بصرها !

وفي عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسا التنسيف والبهدلة في اللبس . وكان هذا الملك متشددًا ، فخربت مغازل كثيرة في معظم المدن الفرنسية . . وتشرذم الدود على الشجر . وماتت الشرائق وطرد الحرير من بلاد الاتاكة !

ولكن أعيدت كل هذه الصناعات بعد ذلك . وأعلن الكاردينال ريشليو : أنه من حماقة أن نحرم على أنفسنا ما أراد الله لنا من جمال — أعيدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الأزياء !

واذا كانت « دودة القز » هذه قد زحفت من آسيا ، فان « الأغنام » أيضا قد جاءت من آسيا ، ولكن في عصور قديمة جدا . وربما كانت

الأغنام أكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان .. ففى كل عصور التاريخ كان هناك رعاة ، لان الأغنام قد سبقت الانسان .. ولكن الأغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . أما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسيا ، ومن ثمة الجزيرة العربية بصفة خاصة ..

وظلت هذه الأغنام يختلط بعضها ببعض حتى كان هذا النوع الأسباني الشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى أسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال افريقيا .. وبوصول الأغنام الى أسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا .. خيوط الحرير وخيوط الصوف .. احتكرت أسبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الأسواق .. ومعركة السيادة على البحار . واهتدت بريطانيا الى انه من الأفضل أن تنقل الأغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الأغنام الى المراعى الأكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، أكلت الأغنام الأرض المزروعة .. بل إن الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الأشجار ويتركرون الحشائش غذاء للأغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل أن رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرمع منهم لعنة الأغنام التى أكلت الأشجار وحولت المدن الى مرعى تاكل عليه .. وكانوا يقولون : أن الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للأغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى أماكن أغنى وأدفاً خارج جزيرتها ، انتقلت اليها الأغنام . وعادت الزراعة الى الأرض . وعادت الأرض الى الانسان !

واخترع الانسان الآلة لتعاون دودة القز وتعاون الأغنام ..
ثم عاد الانسان يخترع اجهزة اخرى لتأخذ مكان الديدان والأغنام،
عندما اخترع الخيوط الصناعية ..
ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعية — خيوط الحرير وخيوط
الصوف وخيوط القطن — أروع وأجمل ..
ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت أمامها ملايين الأغنام . فما أكثر
ما تفعله دودة في حياة الانسان .



الحادية لثعلل لإنسان كقفة يكون حصانا نبلاد !

لم يفهم القاضى طبلعة الخلاف بين رجل
وزوجته . وعاد يسال الرجل :

ولكن لماذا اصبح هذا الخلاف حادا الى هذه
الدرجة . اللىست هى زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضى ! كان
يحبنى فيما مضى . اما الآن فلا . . ضحك على
حتى جعلتنى اترك اهلى ودينى . وبعد ان تمكن
منى ، وصلتنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذى نحن عليه . . انه خلاف اخترعته .
وهى التى طلبت ان اجىء اليك وأن تكون مشاكلكنا مضائح . فاذا
اصبحت لمضائح ضعفت أنا أمام الراى العام . ولكن لن أغبر موقفى .

يقول القاضى : كنت تحبها ؟

— نعم . ولا أزال .
هى تقول : كان يحبني !

القاضى : فى وقت من الاوقات كان هناك حب .. وفجأة تغير كل
شئ .

الاثنان يقولان فى نفس واحد : نعم ! .

القاضى : منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع .

القاضى : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من أبناء
البرتغال يحلمان بعدد الأطفال الذى سوف يكون . قالت الزوجة :
أريدهم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الأولاد ..

واتفق الاثنان على ان يكون ثلاثة من الأولاد واثنان من البنات .
وجلس الزوجان يحلمان ويفكران فى أحسن الأسماء . وقالت الزوجة:
أنت الذى تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذى جعلنى أموت فبك
هياما .. أنت تختار الأسماء . أنا آتى لك بالأولاد والبنات وأنت
الذى تسمى هذه الخرية الصالحة ان شاء الله ..

وفجأة صرخ الزوج : وجدت الأسماء ..

وسمعت الزوجة الأسماء وصرخت . ولطمت خديها . وثبقت
ثوبها .

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . أنت رجل مجنون !

أما لماذا هو مجنون فقد اختار هذه الأسماء لأولاده : النمر .. الفيل .. الخرتيت — للذكور . أما الإناث : الغزالة .. النسفاة !

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد أن يطلقها . وإنما هو « ابن عصره » . وفي ذلك العصر انشغل أبناء أوربا بالحيوانات القادمة من الشرق . وراوا فيها أجمل وأروع ما خلق الله .

صحيح أن كولبوس اكتشف أمريكا ولكنه فتح أبواب الشرق : إلى أفريقيا وآسيا .. وإلى الهند .. وأصبح كل الذين يرتادون الطرق إلى الشرق السحري ، أهم من الذين يزحفون على أمريكا ، بل أن الرحلة فاسكو داجاما أهم من كولبوس .. وأفريقيا أهم من أمريكا .. وهزيمة الأسطول التركي في المياه اليونانية ، أروع عند الأسبان من كل معاركهم وفتوحاتهم .. وأصبحت هدايا قبائل أفريقيا أعظم وأعلى عند أهل البرتغال من كل ما يجيء من مستعمراتهم الكبرى : البرازيل ..

وفي القرن السابع عشر أعلن أديب إسبانيا العظيم سرفانتس : أن مدينة لشبونة هي مركز الدنيا . إليها يجيء الذهب . ومنها يخرج الرجال إلى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

وأصبح من مظاهر الثراء عند الناس في أوربا أن يستعرض كل منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فكان الذي يمشي في شوارع مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة .. وبسرعة تحولت القصور إلى حظائر للحيوانات الأفريقية ..

ومن الغريب أن هذه الحيوانات لم تظهر في لوحات الفنانين . ولكن في حالات نادرة ظهرت بعض الطيور بألوانها الزاهية .

وكانت أشهر الحيوانات التى لفتت الأوربيين وشغلت الصيادين:
الأسد والفيل والنمر والضبع والنعامة والخرتيت .

وكان الإمبراطور الألماني فريدرش الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) من
أكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره .
وحقائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس فى أوروبا أيضا أن يجدوا حدائق للحيوانات
ملحقة بقصور الملوك والنبلاء . وربما كانت أشهر حدائق الحيوان
فى أوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ — ١٩١٤) وهو واحد
من أسرة مدينتى الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات
ويرعاها ويدعو إلى الرحمة بها والعطف عليها . وكان يعطف على
الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لأنه يحب الحياة وجمال
الحياة وحكمة الله » .



وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثانى (١٥٠٤ — ١٥٦٤)
أحد النبلاء من أسرة مدينتى أن أقام له موكبا فخما . وجعل الحيوانات
تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتفرجون على هذه المخلوقات
العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الأسود
ترى بعضها البعض حتى أغلقت من قيودها . وتحولت إلى أشلاء
ودماء . . الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من أحد سلاطين
ممالك مصر إلى أسرة مدينتى . ويقال أن أحد الشعراء قد
ارتجل قصيدة منسوبة جاءت هذه الزرافة إلى مدينة تلورنه .

يقول في قصيدته : طال كل شيء فيك . منك وسيفتك
الأربع وأذنك وأنفك .. أما عيناك فهما مسروقتان من
وجه حبيبتى .. أما لونك فمستعار من براكين صقلية .. أما
مقامك العالى فلا يعيبه إلا أن رأسك صغير وعقلك أيضا .. ولكن
ليس من الضروري أن يكون الجميل عاقلا .. يكفى أن يكون الجمال
والجميل أكبر لصين لكل العقول » .

وهناك يوم في تاريخ الإنسان أو في تاريخ المغامرات أو في تاريخ
الحيوان لا ينساه أحد عندما أرسل ملك البرتغال مانويل هدية إلى
بابا الفانيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثنان من النمر وضبع
قد ركب حصانا عربيا . أما الخرتيت الذى أرسله الملك مانويل فقد
فرقت به السفينة في البحر الأبيض .. ويقال أن الخرتيت ظل يضرب
السفينة حتى خرقها واندمجت المياه . والتى الخرتيت بنفسه في
البحر ..

ومشى الموكب في شوارع روما .. والناس يتفرجون على أعاجيب
الهدية الأمريكية . ودقت أجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير
إلى أن تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه
الخلفيتين ورفع زلومته إلى أعلى يحيى البابا والكرادلة أمراء الكنيسة
.. وبسرعة تقدم أحد الحرس الملكى البرتغالى بثلاثة جرادل من
الماء المعطر .. ووضعها أمام الفيل .. ومد الفيل خرطوميه وملاه
بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرح ..
وكان يوما مشهودا في تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال
وكنيسة روما !

وأرهب رجال الدين أنفسهم في شرح ما حدث . قالوا : أن الفكرة

هى أن يدرك الانسان بوضوح انه مهما كانت الحيوانات قوية ، فان الانسان هو الأقوى بذكائه . ان هذه الحيوانات قادرة على سحق أقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والفكاء يقهر الوحوش . . فهذه الحيوانات كلها قد احتل عليها الانسان وأتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولا أمام أصغر الأطفال . ثم أنها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !



وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان . ان تاريخ الحصان والانسان طويل . فالحصان في العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندي المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت - الحصان هو الذى يموت غالبا . وكان من الصعب على الانسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربع أرجل . ولكن أحدا لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشيء ، ولم يكن غاية . فلا أحد قد فكر فيه ، أو التفت اليه . . أو نظر الى تركيبه الجسمى الجميل أو الى خطواته . . وانما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الايطاليين في القرن السادس عشر تنبه فجأة الى ان هذا الحيوان الجميل . يقول النبيل الايطالى غريكو جريسونة فى مذكراته : « كل شيء حدث فجأة . وكأنتى لم أر الحصان فى حياتى قط . . لقد نظرت اليه . . وتأملتة . . وأحسست كأنتى نبى مكلف بانتقاد هذا الحيوان من الانسان . . فهذا الحيوان شكله جميل ،

وخطوته قوية ناعمة . وحركته رشيقة . . وهامته مرفوعة . . انه واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس في هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وأنا الذى سوف أحرره»

وبدا النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من فوق الحواجز . . وافتتح مدرسة لتعليم الخيول . أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقه من التقدير والاحترام والحب . .

وانتشرت اخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول وتعانق الانسان والحيوان في اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن أن تسمى هذه الحركة الفروسية : أى أن يكون الانسان فى سمو الحصان وفى جماله . . وان يكون شهما نبيلًا . محبا للحياة والحيوان والانسان . .

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنياتللى . هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاي » صاحب الجلالة يجب ألا يكون القصر الملكى زريبة للخيول . وانما يجب أن يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من الأصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة . . يجب أن يكون النبلاء والامراء أصدقاء للخيول ، أى أصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والأتانة . . مولاي صاحب الجلالة . . ان كل قصر يضم خيولا تاكل وتشرب من أجل أن تموت فى القتال ، ليست الا مجزرة الا زريبة ملكية . . مولاي أنت حر فى اختيار أصدقائك وأصفيائك . . ولكن

يجب ، يا مولاي ، ألا تنسى هذه العبارة التي تعلمتها من الخيول : قل
لى كيف تعامل حصانك أقل لك من أنت .

وجاءت الخيول بالملكات والنبلاء بالالوف الى « أكاديمية تعليم
الانسان كيف يمشى كالحصان » فى مدينة نابلى الإيطالية . وكان
بنياطلى يعلم الخيول كيف تمشى على الايقاع الموسيقى . وكيف
ترقص وحدها . . أو قد امتطأها أحد النبلاء . . أن عصرا من احترام
الانسان للانسان أو للحيوان قد بدأ . . وكانت البداية هذه المعاملة
النبيلة لحيوانات أكثر نبلا هي : الخيول !



ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الاسباني ، لقيت الثيران نوعا
آخر من المعاملة . فمصارعة الثيران قديمة . ويقال قديمة جدا لدرجة
أن علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران قد أصابها
السهم . رهى تنزف وتجرى . . والانسان لم يظهر فى هذه النقوش .
أما لأنه من المفهوم أنه هو الذى أصابها ، أو لأن رسام النقوش أراد
أن يقول أن الثيران كانت أسرع منه فى الهرب لدرجة أنه لم يستطع
أن يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

ويقال أن هذه الثيران متعددة الأصول . بعضها ثيران أوربية
وحشية . . وبعض هذه الثيران جاء من أفريقيا . . ومن مصر . وبعض
الثيران تشبه الأبقار الفرعونية القديمة .

وتقصص ، الثيران ونواذرهما فى تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا ،

ولانتزال .. يقال أن الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال أقام مصارعة للثيران بمناسبة تنويجه . ولم يكتف بالدماء التي سالت في هذه الحفلة ، فقرر أن يتولى هو اطلاق السهام على عشرين ثورا حتى قتلها والجماهير سعيدة بهارة ملكها !

وعندئذ ولد للملك الاسباني كارلوس الخامس ابنه فيليب الثانى سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحد . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا في أذنه بأنه لم تبق في المملكة ثيران . قال : انن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجيء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسى الايطالى الكبير الاسباني الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ - ١٥٠٧) قرر أن يتسلى في احدى الليالى . وكان له عشرون ثورا في احدى القلاع .. فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها في ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملى شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء في أسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجمتهم الثيران أفلحوا في الهرب منها . وفي عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجماهير لم تسعد بذلك .. فاهتدى الأسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة مدببة لكي تكون مفزعة لمصارعى الثيران وللمتفرجين ..

وفي البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران .. وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

فان شكلها أقرب الى الصيد منه الى الرياضة.. فالمصارع لا يداعب الثور بعنف ، وانما هو يصيده ، ويقتله في النهاية .. فهم يضعون الثور في حظيرة مظلمة لبضعة ايام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور الى النور . ثم يجيء من يمسك له غطاء أحمر داميا .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكي يثور الثور . فاذا ثار وهاج ، تقدم الفارس أو « المتادور » — ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فاذا داخ انقض عليه .. ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقا . وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد أن يشترك في صراع مع احد .. بل انه يريد أن يهرب من النور الى الظلام ، غير أن باب الحظيرة قد أغلق .. وليس له الا أن يقاوم ، وهو مرهق تماما .. فكان المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكدودة . ولكن الجماهير تصرخ .. وأحيانا الأعيرة النارية .. ولا بد أن يقتله ، سواء صارعة أو لم يصرعه .. لان الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور . والرقص والغناء للبطل الذي قتل الثور أمام ملايين العيون في كل مكان .

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن .. ومريحة . وأصبح للثيران تاريخ . وهم يحرصون على اختيارها وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه الى التقاعد ثم يأكلون لحمه بعد ذلك .. لابد أن يموت !

وحاولت أسبانيا كثيرا أن تشغل الناس بمصارعة الديوك .. ولكن هذه المصارعة موجودة في المستعمرات الاسبانية القديمة .. نجدها في الفيلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى نفس الاهتمام ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لأنها غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التي تشترك في

المصارعة او في القتال . . ويضعون الامواس والسكاكين القاطعة
في ارجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع في
الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء . .

وبقيت مصارعة الثيران هي « الرياضة » العنيفة التي يقبل عليها
الأسبان . . ويعرفون تاريخ ثيرانها وأبطالها . . هؤلاء الأبطال الذين
اثاروا الفزع بين المتفرجين : وفازوا بلال والمجد في النهاية ، من
مئات المسنين ، وحتى اليوم !



من يعرف الإنسان كثيراً يحترم الحيوان أكثر !

• على باب إحدى خلايا النحل وقف رجل انجليزي في دهشة . وانتهت دهشته بان صرخ ، فقد لسعته نحلة . وعاد الى البيت ليقول : شيء فظيع . كذب كل ما قاله الشعراء . الحقيقة شيء آخر . . ان هؤلاء الشعراء قد اخروا الحضارة الانسانية الوف السنين . لو استطيع ان اجمعهم في مكان واحد واطلق عليهم النحل . . لو استطيع ذلك لأرحت الانسانية كلها ! . .

ولم يستطع هذا الكاتب مندفيـل أن يحشر الشعراء في خلية واحدة ويستريح منهم . ما الذي حدث لهذا الكاتب الانجليزي سنة ١٧٢٠ ؟ لقد رأى إحدى خلايا النحل . ووجد بها حركة ونشاطا عظيما . وفجأة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه . ثم عاد الى الخلية . طردوه وعاد مرة ثانية وأخيرا تكاثرت النحل عليه . . وسقط الدبور ميتا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا في مملكة النحل . كان رأيـه مثل

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المراه وتقبلها حاكمه عليها . . وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لها . . كل ذلك يتم في هدوء وسلام . . والنتيجة عسل . ولكن هذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير في احوال هذه الخلية . . وأصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل او كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلية عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل المشغال يعمل . وهناك انواع اخرى من النحل لا تعمل . وانما تدور حول الملكة وتحميها وتتابعها . النحل المشغال يجمع الرحيق من كل مكان ويفرز له ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تأكل وتشرب وتبيض ويقول في كتابه أيضا أن النحل طلب من آلهة الاغريق أن تعاونه ولكن الآلهة تعبت من انقاذ النحل من نفسه وخربت الخلايا وماتت الملكة واحترق النحل المشغال . أما الدبابير فقد أوت الى جذع نخلة وعاشت أياما للموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بأنه يريد افساد الاخلاقيات العامة . . وانه يهاجم النظام الملكى . . وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا . . وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلتقى نفس المصير . . ولم يلتقى الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر قسيس ايرلندى اسمه سوينت . وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسم

ابن أخيه . الكتاب اسمه : « رحلات في بلاد بعيدة لجيلفر » ، كان طبيبا أول الأمر ثمبحارا لعدة سفن بعد ذلك . . « ومن مغامرات جيلفر هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول ان الخيول أذكى وأشجع وأعقل وأكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة في الكلام . وفي هذه الأرض سمع عن حيوان منحط غبي . وأن هذه الخيول تحاول أن تروضه وان تعلمه ولكن يبدو أنه لا أمل في ذلك . . هذا الحيوان الذى تسميه الخيول « ياهوه » ليس الا الانسان نفسه ا

كان جيلفر يريد أن يقول : أن الانسان ليس أسمى الحيوانات . وانما هو حيوان من نوع ردىء ولكنه لن يتأكد من ذلك الا اذا سافر الى بلاد أخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من أروع الأعمال الأدبية والفلسفية ، فان هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للأطفال ذات دلالة أخلاقية . أو ذات مغزى فلسفى . . ولكنها رغم ذلك من الأعمال الأبقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات الساخرة بين الانسان والحيوان ، أو بين الانسان والحشرات ، وجدنا في عصر النهضة تساؤلا استغرق مئات السنين : لماذا نجد الانسان يقتل الانسان ، ان الحيوانات لا تفعل ذلك ؟ أيهما الحيوان : الانسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

فمن بين الاجابات في عصر النهضة ان الانسان حيوان لانه قليل

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايمان عن مستوى الحيوان . ولكن الانسان حريص على كفره ، فأصبح هذا الحيوان الكريه . وان الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم في الجنة عندما اكل من الشجرة التي حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا اراد الانسان أن يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هذه الحيوانات ليست الا نوعا من الانسان عاجزة عن التعبير ولانها عاجزة عن التعبير فهي عاجزة عن الكذب واخفاء مشاعرها . فهي اصدق من الانسان . اى أن الحيوان هو الانسان قبل أن يتعلم الكذب . فالحيوان افضل من الانسان .

واكن المعنى في كل عصر النهضة الاوربية هو هذه العبارة البليغة التي قلها الفنان بأوبوتس من الوف السنين : الانسان ذئب لأخيه الانسان
Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم ارسطو : أن الانسان حيوان سياسى
Zooir Politikon
لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وانما أراد أن يقول انه حيوان لا يستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد أن يعيش مع الآخرين وبهم—والحيوانات تفعل ذلك أيضا !

فقط عندما ظهر الساخر الفرنسى الكبير مونتني بدأ الفكر الانسانى كله يتجه ناحية أخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسى يقول : لا أظن أن الانسان افضل من الحيوان . انه أخط من الحيوان . واعتقد

اننى تجنيت على الحيوان عندما وصفته بأنه منحط . فالانسان هو الذى قال انه اسمى من الحيوان . وهو قال ذلك لانه مغرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة افضل منها عند الحيوان فالحيوان اقوى واشجع . واكثر تضحية من أحل الزوجة والابن . أن ذكور الذئاب تفدى انائها وصغارها بالموت فى مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع . . وان الحيوانات اكثر نبلا من الانسان . . ان الطيور تفرغ بطونها فى بطون صغارها وتكاد تموت من الجوع . . ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات فى المغابة ويجد المتعة الكبرى فى أن يرى الجميع تفعل ذلك . . ارونى حاكما يفعل ذلك من أجل شعبه !

ثم أن الحيوانات محبة للسلام . انها لا تشن الحروب . ولا تعتدى على أحد . كل ما تريده هو أن تظل فى مكانها تأكل وتشرب فى هدوء . . الا اذا هاجمها أحد . ويكون هذا الاحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

واذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان فى عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهدأ أو تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكأن دماء لم تسيل ، وكأن صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض . . يقول مونتني : انه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لانها تحمل طائرا مهيب الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية ندليك لبعضلات المطائر . . فهي تشد ريشه بمنقارها . . ثم ترخى هذا الريش مرة

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع في الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت لحملته على أجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتني أن هناك حيوانات لها ذكاء الانسان . ولها خبئه أيضا . ولكن الانسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الابداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسي مونتني هو أنه لفت العيون والافكار الى الحيوان والى الانسان .. والى تقريب المسافة بين الاثنين .

وأهم من ذلك يقول مونتني : كل ما عملته هو اننى سحبت الانسان من أنه ووضعته في اقفاص الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت الى الناس جميعا لاقول لهم : تعالوا نختبر ذكاءنا جميعا : أين هو الانسان وأين هو الحيوان !

ومونتني هو أول من وضع أسس « علم النفس الحيوانى » أو علم نفس الحيوان .

وكثير من افكار الفيلسوف الفرنسي مونتني ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة وذكائه الحاد أن يضعها في عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتي للانسان ؟ هل الانسان فقط

هو الذى له نفس وله روح . . أى أن الحيوان بلا نفس ولا روح
وانما مجرد حياة : أن يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدري من هذه
الدنيا شيئاً ؟

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس . . الانسان فقط
هو الذى له نفس عاقلة . انه يتكلم . يكتب . يتخيل . أما الحيوان
فليس « له نفس » . واذا ضربته على رأسه فلن يقول : آه . . وما دام
لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يقف امامك يلعب بذيله يريد منك
قطعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشيء . . الطفل فقط
هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المائى كبير اسمه ليبنتس يقول : لا فرق بين الشاعر
والحمار . . كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات
هى بذور الحياة نفسها . فالانسان هو هذه الأشياء الصغيرة .
والحيوان كذلك . ولكن ذرات الانسان أو « بذور حياة » الانسان
احسن أو اعقل من (بذور حياة) الحيوان . . ولكن كل انسان
وحيوان مكون من بذور الحياة أو ذرات الحياة . أو من الحياة
البخرية أو الحياة الذرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخلية الحية الميتة . . أو
الحيوان المنوى للانسان والحيوان كانت النتيجة واحدة . . فتحت
الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجيء هذه الأشياء الصغيرة الحية

هى « فتافيت الحياة » وكل شىء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لانسان أو حيوان أو نبات .. فالحل واحد . والله اراد أن يكون كل شىء واحدا . هذا الكل الواحد بطل على قدرة الله .. فالحل أمام الله صغير جدا .. فالانسان ليس أكبر من الحيوان ، والحيوان ليس أرفع من النبات .. الكل ليس إلا كلمات أو مفردات فى قاموس الكون الأعظم من تأليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى أوروبا وصفوا الحيوان بأنه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجيء .. انظر الى الكلب .. انه ظلك .. يمشى وراءك ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطعة .. والحيوانات المفترسة تراك فتهرب .. أو تراك فتهمج عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مدفع .. انها آلات مندفعة .. فلا عقل لها !

وأصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للانسان طبعاً . حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. وأصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط أصبحت كلمة الآلة شرفاً للانسان اذا وصفناه بها . بل الانسان يتمنى لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل باتقان ولا تحابى أحدا . وأصبح المجتمع كله جهازاً ضخماً ، أو يجب أن يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الانسان آلة ، وإنما هو يحلم بأن يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر رداً حقيقياً عملياً على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا متركى » . هذا الرجل يقول ان الانسان

والحيوان كليهما آلة . وانه لا فرق بين انسان وحيوان . وانما الحيوان كان من الممكن ان يكون انسانا لو أعطى الفرصة . . تماما كما ان الخادم كان من الممكن ان يكون السيد ، وان يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . اذن : اعطوا الحيوان الفرصة لكي يكون انسانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : القروء : مثلا ما الذى ينقصها ؟ الكلام ! لو روضناها لو دربناها لقاتل كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : ان هناك انواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة فى كل جزء من أجزائها . . الدودة تقسمها نصفين . . كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا . . ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه . . ماتت اليد والساق . . واذا انكسر رأسه أو نزع قلبه مات . . ومعنى ذلك أن حياة الانسان أضيق نطاقا . . وانه أسهل كسرا وموتا من أحقر الحشرات .

والذى قاله هذا الفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه أثار الكنيسة وأغضب المجتمع السياسى فى فرنسا واستدعاه الامبراطور الالمانى فريدريش الاول وطلب اليه ان يبقى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والفكر لامترى لا يعرف أن عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا ان يعلم القروء كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالقروء عاجزة تماما عن الكلام .

ثم ان ما تحتاجه الدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

يمينا وشمالا بنصفها أو ربعها . . ولكن الانسان جهاز شديد التطور
وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمنت فيها
الكنيسة وقتا طويلا . أن وفاته تذكرنا بوفاة الخديو المصري
اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض اصدقائه . وكانت امامه
فطيرة محشوة بالتفاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملا فمه من
الشمبانيا وتراهن مع اصدقائه انه يستطيع أن يدخل الفطيرة في
فمه دون أن تسيل قطرة شمبانيا من بين شفثيه . . وفعلها مرة وفي
المرة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين
من الشمبانيا في فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين
في وقت واحد — ومات هو أيضا !

ولكن الشعور العام في أوروبا في العصور الحديثة : أن الحيوان
أكثر نبلا من الانسان — منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالماني المتشائم ثومينهور مبالغا عندما فكر
قبل أن يموت بقليل أن يلقي بأمواله في البحر ولما سئل عن ذلك
قال : ان احدا لا يستحقها من بعدى !

ولما سئل مرة أخرى : ولا حتى كلبك !

فنمض واقفا : انا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذي اخلص
لى في كل الظروف !

ثم اوصى بأمواله كلها الى كلبه !

والفيلسوف الالماني نيتشه كان يحب الفتاة اليهودية سالومي وكان
ينافسه في حبها العالم اليهودي فرويد والشاعر الالماني ريلكه ..
ولم يتفق الثلاثة على شيء لانهم جميعا مختلفون تماما .. واخيرا
قرروا ان يقيموا لها حفلة تكريم .. فأتوا بعربة واركبوها العربة
واعطوها كراباجا .. ثم سحبوا العربة .. كأنهم خيول او حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الإيطالية رأى في
ميدانها اعمام حصانا جميلا .. فراح يجرى وراءه ويصرخ ويعانقه :
يا ابل كائن يمشى على اربع او على اثنتين !



هو يسقط الريش يطير !

« لو كان يقول أى شيء » — ولم يقل
حيوان الكابتن أى شيء . وإنما ظل الكابتن
كوك الذى اكتشف استراليا وعشرات الجزر
يتأمل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير في
القارات الأربع . وكتب في مذكراته يقول : له
راس غزال وله ذيل طويل وإذا مشى فانه يقفز
كالضفدعة .

ثم مضى الكابتن كوك في وصف هذا الحيوان . كيف يأكل وكيف
يشرب . ورغم قدرته الهائلة على الملاحظة فانه لم يتنبه الى أن
هذا الحيوان يحمل صفاره في جيب في بطنه . ولم يعرف ان هذا
الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة أقدام عندما يضع صفاره فان
الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد في أستراليا أو القارة الجديدة ،
وانما هناك حيوانات أخرى انقرضت مثل هذا الحيوان الذى كان
بصيده البدائيون ليأكلوا لحمه ويصيده الأوروبيون ليمسلكوا

جلده . . والبداثيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال أن سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فإنه ينطق كلمة : كائج . . وعندما يموت فآخر كلماته كلمة : رو . .

ومعنى ذلك أن البداثيين يريدون أن يقولوا أن الحيوان يولد ليموت ! — هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون في خمسينات هذا القرن وصفتنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات في مدينة سيدنى بأستراليا لم أجد إلا ثلاثة من الكانجرو . وسألت ان كان هذا الحيوان قد أصبح نادرا . فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة في مدخل خليج سسائيت منسنت اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو سابقا . . أو جزيرة الس . . حيوان الذي كان هنا !



وأهم ما جاء في مذكرات الكابتن جيمس كوك في سنة ١٧٧١ هذه العبارة : انشغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبة والطيور العجيبة ومن أين جاءت وكيف جاءت . . ولكن لم يتسع وقتي لنهم أشياء كثيرة فمن الأشياء التي لاحظتها أن حيوان الكانجرو هذا إذا مرض أمتنع عن الطعام ، وانزوى وحده وأبعد صفاره عنه . . وأحيانا تجيء أنثى أخريات وتتولى كل واحدة إطعام هذه الصغار . . وإذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فإنه يحفر الأرض بقدميه الأماميتين . . وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من الموت . . فإذا مات فإنه يتمرغ في حفرة . . ولا يسكن تهما إلا وقد

انهال عليه القراب كله . . كأنه حفر قبراً ثم دفن نفسه فيه تماماً .

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الوف السنين .
فهم جميعاً كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقسارنون بينه وبين
الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان يفتحون بطن الحيوان .
يريدون أن يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن
يعرفوا ما الذى يضحخه قلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان . . ان
العالم الفرنسى هارفى عندما اهتدى الى الدورة الدموية كان ذلك عن
طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات . . والعالم الكبير مالبيجى عرف
التنفس عند الحيوان عندما أخذ يكتم انفاس الحيوان . بل انه قد
اهتدى الى الكريات الحمراء عندما رأى ذلك فى حيوان القنفذ . وكان
يظن أن هذه الكريات هى أنواع من الدهن . . ثم انه نقل دم الكلاب
بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى أوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز
العصبى كان ذلك عن طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنسار ،
ليلاً ونهار . . هنا أدرك الأطباء والعلماء ، أن الاجهزة التى تحرك
الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان . . وان للجميع أعصاباً
وان هذه الأعصاب تمسك كل أعضائه وعضلاته . . وتؤثر على
وظائفه — يكفى أن ننظر الى هذه الحيوانات !

* * *

ولا شئ يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى الملو
والتخلص من متاعب المسافات بين الناس وبين البسلاد ، مثل
اعجابه بالطيور وخفتها ورشاقتها فى الحركة وركوب الهواء . . كل

النقوش القديمة تدل على هذا الاعجاب بالصقور والنسور . ولكن الانسان نفسه لم يعجب بالذباب مع انه اعجوبة الحشرات . لان الذباب مرتبط في ذهنه بالقذارة وبأنه يضايقه عند النوم والاكل . واذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا انه يفوق في اعجازه تكوين النسر . . ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة في الطيران والانتقاض تذهل اعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن احدا لم يلتفت الى ذبابة . وانما كان الانسان مشغولا بالطيران . . وعند الاغريق ، وفي اساطيرهم الرائعة حكاية دياولوس . . كان فنانا قائرا على صناعة الكثير من الادوات التي استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس . وهو الذى اخترع شراع السفن . هو ايضا الذى اخترع المدفعة والسفارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره ان يناقسه احد . ويبدو ان له ابن اخت سوف يكون اعظم ، فالقى به من النافذة ومات الشاب قتلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع لاحدى الملكات سجنا لا يمكن ان يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه . ولكنها لم تأمن اليه . وخشيى ان يهرب ويصنع سجنا مماثلا في جزيرة اخرى والملكة اخرى . فحبسته في هذا السجن . واستطاع ان يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل والصق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه . . ويقال ان ابنه ارتفع في السماء فأذابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن ميتا . . اما الاب فنزل في احدى الجزر . ويقال انهم وجدوه ميتا ووجدوا حبلا طويلة في عنقه . . ووجدوا في هذه الحبال عشرات من النسور . . يبدو انه كان يريد هذه النسور ان تحمله . . ان تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشدته جانبية الارض ، فمات وماتت النسور !

وقد حاول أحد علماء الاندلس واسمه عباس بن فرناس أن يطير

هو أيضا . وكانت محاولته في القرن التاسع الميلادي . وغطى جسمه بالريش وألقى بنفسه من جبل . . وحمله الريش قليلا . . ثم سقط ميتا وارتفع الريش في الهواء . .

ولم تمت فكرة الطيران عند الانسان وانما تجددت في كل العصور . . حتى القرن الثامن عشر في فرنسا ، حاول كثيرون ان يستخدموا بالونات الورق في الطسيران . ولم يفضلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفي سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكذ الملاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا ان القمر نفسه قد سقط من السماء . واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم في ذيل أحد الخيول ، وراحوا ينقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فأصدرت الحكومة الفرنسية بيانا تصف فيه هذه التجربة وتؤكد اهميتها للانسانية . وانه لا خوف على أحد ولا ضرر له في ماله وعياله .

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون أكبر ومن الورق أيضا . وكان صاحب البالون أكثر خيالا وأعنف طموحا . فعلق في البالون صندوقا من الخشب . وفي الصندوق حروف وبجاجة وبطة . وارتفع البالون . ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة . . وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المائش . واتجه الانسان الى اساليب وحيل جديدة في صناعة الاجنحة الهندسية لكي تطير به من مكان الى مكان أبعد وأسرع من الطيور نفسها . ويكفي ان ننظر الى ماركات شركات الطيران العالمية لنجد ان هذه الماركات ليست الا مبالاة رائعة في تصوير معنى الطيران والطيور . فكل هذه الماركات تشير الى خفة الحركة ورشاقتها

وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه . . كأنها طيور آمنة مطمئنة
لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

فالأعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها يمكن فهم الإنسان
هو هدف العلماء من الوف السنين . وليست الطيور وحدها التي
يريد الإنسان أن يتخذها وسيلة لفهم الإنسان . وإنما كل الحيوانات ،
ومن أقدم العصور كان الملوك يهدون أطباءهم أناسا مجرمين
ليجربوا فيهم المشارط والسكاكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب
الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هي
هذه الحياة . . ما القلب ما الكبد ما الأمعاء . . ما المعدة . . وكان
يحدث ذلك في مصر الفرعونية وفي فارس القديمة . .

وكان رجال الدين في كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصد
البحث العلمى . وإنما يرون القتل للصيد أو للأكل ممكنا . . أما
إسالة دم الحيوان وتقطيع أطرافه ، مهما كان الهدف نبيلًا فشيء
حرام . ولعل الفنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما
لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف
تكوين السيقان والراس . وكان يعلم أن رجال الدين يرفضون هذه
النظرة العلمية الواقعية للأشياء . ولا يرون فيها إلا خروجًا على
الدين . .

وعندما انتشر القتل بالسهم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع
عشر ، يطلبون الى الأطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم . . وأحيانا يموت
الأطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصوص الذين
يعتقلونهم في مكان خاص بالقرب من القصور . . وأخيرا اهتدى

الاطباء الى وسيلة لاتقاذ ارواحهم هم ، فأتوا بالحيوانات يطعمونها
ما يقدمونه للملك . . وكان السم احيانا شديدا فيتلوى الحيوان
تحت قدمى الملك . . فيرفض الملك الطعام أياما من شدة الخوف . .



ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يغمر أوروبا
كلها ويدعو الى الرفق بالحيوان والرحمة به . فهو أيضا يتألم ويتعذب
مثلنا . والذي يرحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان .
والذى يقسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك
يجب أن نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لنكون رحماء بأنفسنا . .
والاطفال يجب أن نعلمهم حب الحيوانات ليحبوا بعضهم بعضا .

بل أننا رأينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى أن
نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى اذا كبروا كرهوا القسوة على
أحد من الناس . .

وقبل روسو بعشرين قرنا اقام الملك الهندى اشوكا أول مستشفى
للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول : لا أصدق
أن أبا يحب أطفاله ، اذا رأى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة أو قليل
من اللبن . . لا أصدق أن الأم لا تأكل بنيه ، اذا رأت هرة تلد ثم
ألقت عليها بالتراب ، لأنها تتشاعم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى أيام الحروب كانت تقام الحظائر للخيول . ولكن اذا مرض
حصان قتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

حتى كانت سنة ١٧٤١ . في هذا العام أقام رجل فرنسي اسمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطري . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق في هولندا أو سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان . وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انسانا في معاملة الحيوان . . وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لأسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام . . أى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الألم . . وان هذه الحيوانات تحب من يحبها — والكلب أكبر دليل على ذلك . وأن في هذه الحيوانات شهامة ونبل — الحصان أقوى دليل على ذلك . .

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الاطباء لعلاج الحيوانات التي تنفع الانسان : الحيوانات التي ناكل لحمها أو نبيع جلدها أو تجر العربات أو تحرس له العربة والحصان والبيت . .

ولا تزال في العالم عشرات الالوف من مستشفيات الحيوان . . والوف المجلات للحيوان . . ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من اصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان — حبا في الحيوان ، أو كرها في الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لاىكا في احدى سفن الفضاء تدور حول العالم ثارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية . . جريمة . .

مع ان في المعامل في كل مكان الوف الحيوانات تموت فداء للانسان . ولكن هذه القلوب الرحيمة بالكلبة لاىكا نسيت الانجاز العلمى

المعظيم الذي رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء ..
فمائت الكلبة لا يكا ودفنت في قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول
الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مقرات من الارض وبسرعة عشرات
الآلاف من الاميال في الساعة ..

**وكانت هذه الجنازة العجيبة التي اشترك فيها كل سكان الارض :
جنازة حارة والميت كلب !**



لونا الأرنيب قليلاً تذكرتك السحفاة !

* في القرن الثامن عشر تأكد لدى الناس ذلك
المعنى الذى جاء فى الكتاب المقدس : ان الناس
ولدوا ليندموا على اتهم ولدوا .. فقد كانت
الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك .
ولا يتسع وقت الانسان ليسال نفسه : صحيح
ما معنى هذا كله ؟ ماذا اخذت ؟ ماذا أعطيت ؟
ما الذى يتبقى منى لاحد من الناس . والجواب
عادة : لا شيء ! كان الناس ولدوا ليكونوا بعد
ذلك : لا شيء ، كما كانوا قبل ان يولدوا — انها
نظرة مثل الحياة ومثل مداخن المصانع الجديدة :
سوداء ! ..

وفى سنة ١٣٨٤ أعلن البابا كلمنس السادس أن عدد الاوروبيين
الذين أبادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليوناً!
ولم يكن المرض هو الحاصد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن
مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

الكراهية التي تؤدي الى القتل — اثنان من اولاد آدم قد فعلا ذلك
وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة اشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا . . وحرب الثلاثين عاما
مزقت قلب ألمانيا . .

وفي انجلترا جاءت حرب الخمسين عاما فطاحت بالكثير من
الرجال والشباب . .

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا سائلا
على ساق وقالوا : ان هذا يحدث كل عشرين سنوات ، ويجب أن نتوقع
ذلك ، فانساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعت النساء . . وبذلك
يظل عدد سكان العالم رقبا ثابتا . انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية
من البشر من سفينة نوح فوق جبل أرارات !

ولكن ما هذا الذى يجرى بين الناس . . انهم يتزايدون رغم ذلك ،
والطعام لا يكفيهم ، ولا بد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام
من النباتات ومن الحيوانات . . ليكون هناك كساء وغطساء
ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويموت
من ابنائه اقل عدد ممكن .

وفي احدى القصص التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر يقول
الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجيء هؤلاء الأطفال ، ان الرجال
مادة يخطئون فى عدد اولادهم الشرعيين وغير الشرعيين . . ولكن

الامهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك . فالام تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة او اقل من ذلك كثيرا ، فالرجل لا يدري به ولكن الام تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم اولاد اقل . . ولكنها المرأة هي التي يجب ان تفعل شيئا — ن نساء الاغريق ضربن ازواجهن لان الرجال يدخلون الفراش دون ان يضعوا في شعورهم شيئا من العطر ، او على اجسادهم شيئا من الزيت الذي يكسب الرجل حيوية وقدرة على امتاع المرأة . . فلتفعل المرأة شيئا .

والمعنى هو ان الكاتب يطلب الى المرأة ان ترفس الرجل حتى لا يقربها وحتى لا يزيد عدد الناس في كل مكان . . ومن حقها ان تفعل ذلك فهي التي تتعب وهي التي تتعذب . اما الرجال فلا يشعرون بشيء . . وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بألف سنة . عندما اختلف ابو الاسود الدولى مع زوجته على الطلاق وحضانة الاطفال قالت الزوجة امام القاضي : انا تعبت انا حملت اطفالى . انا اولى بهم . . قال الزوج : انا حملت الطفل قبل ان تحمليه انت . قالت الزوجة : انت حملته في ظهرك خفيئا ، وانا حملته في بطنى ثقيلًا .

وحكم القاضي للزوجة بحضانة الاطفال !

واستطاع قسيس انجليزى ان يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان في العالم انه القسيس مالثوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما اصدر كتابا بلا امضاء . . انه يقول : ان الطعام في العالم يتزايد بصورة حسابية : ١ — ٢ — ٣ — ٤ بينما يتزايد عدد سكان العالم بصورة هندسية ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ وهكذا .

ومعنى ذلك أن الطعام لن يكفى الإنسان ، وإن الإنسان يعيش ويكبر ليموت جوعاً ، إلا إذا توقف الإنسان عن النمو ، أو إلا إذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالمطلوب من الإنسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الإنسان أن يوفر الطعام الكثير لأنه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكان الطعام يؤدي الى النتيجة غير المطلوبة . . فالأفضل هو ألا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له ، أو يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس ماثوس : صحيح أن الأرنب والسلحفاة لو دخلا فى سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب أن ينام قليلاً فى الطريق فإن السلحفاة سوف تصل قبل الأرنب ، أو تصل معه فى وقت واحد !

وسارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النسل ، فالإنسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع أن يحدد عدد صغاره . ولكن الإنسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسة فى أوروبا فى ذلك الوقت : الطهارة يارجال . . الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغيف فجاء العفة أن تجد الطعام والشراب . . والنزوات عقابها الجوع !

أما رجال الصناعات وأصحاب رعوس الأموال فقد انزعجوا ، لأن

تحديد النسل معناه أن يصبح عدد العمال أقل . فإذا قل عددهم ارتفعت أجورهم ، وإذا ارتفعت أجورهم نقص ما يكسبه أصحاب المصانع والمتاجر . . ولذلك وقفوا ضد القسيس مالثوس الذي يدعو إلى تخریب بيوت المال في أوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب أن يحدد الناس نسلهم ، وإلا زاد عدد الجوع ، فإذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسا ، وأطاحوا بالملكية في إنجلترا . وقلبوا الأوضاع واختلت الموازين والقيم الاجتماعية . . ولذلك لمنظريه القسيس مالثوس هي أعظم ما اكتشف الإنسان في كل العصور !

وأخذت الجامعات تلتقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب إليه أن يحاضر فيها ، فهو الذي وضع أصابعه على داء البشرية ، وأقوى قوى التاريخ الانساني !

ولو نظرنا إلى عالم الحيوان لوجدنا شسيتا مخيفا ، ففي عالم الأسماك مثلا : نجد أن أنثى سمك الرنجة تضع أربعين ألف بيضة بينما تضع سمك موسى تسعة ملايين بيضة والسمامون تضع ثمانية وعشرين مليون بيضة . . وسمطان البحر الأمريكى يضع مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات في السنة .

وفي عالم الحشرات : نجد أن ملكة النحل تضع في السنوات الثلاث الأولى خمسة ملايين بيضة .

أما الضفدعة فأنها تلقي ٥٤ ألف مليون بيضة في السنوات الثلاث

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر في أن عدد الضفادع في العالم يتوازن دائما — هناك الكثير في كل مكان في أى وقت !

وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيض وعدد البيض الذى تم اخصابه . . وهذه المسافة تصبح أوضح وأكبر في الانسان ، فعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بالوف الملايين وعدد البويضات عند المرأة مئات الالوف . . ولكن لابد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المرأة ليكون هناك طفل .

ولان المرأة لاتقوى على حمل أكثر من طفل فان هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها . . وفي عالم الحيوان والحشرات نجد أن الذكر ليست له أهميته . فإذا قتل أو أكلته الانثى فان الطبيعة لاتخسر شيئا بالمرّة ، بل ان الملايين من البويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المرأة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بالوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف ان المرأة لاتستطيع أن تحمل أكثر من عشرين مرة في العمر كله . . وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة اقليلًا . . وهذا ينطبق أيضا على كل الحيوانات الاخرى التى يأكلها الانسان !

والأغنياء وحدهم هم الذين انشغلوا كثيرا بعدد أطفالهم وبالجوع .
فهم لا يريدون لأطفالهم أن يجوعوا . أما الفقراء فإن الجوع
لا يشغلهم . لأنهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما اشند بهم الجوع ،
أحسوا باقتراب الموت ، وأصيبوا بحالة نهم جنسى ، فيزداد عددهم
.. لهذا زاد عدد الفقراء الذين ازدادوا فقرا !

ولابد أن ينشغل الناس عموما بالبحث عن موارد للطعام ، لتوسيع
رقعة الأرض المزروعة عثبا ، أو بالهجرة الى بلاد أخرى ،
الاييرلنديون هربوا من أرضهم القاحلة الى أمريكا ، الانجليز رفضوا
أن يتركوا أرضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث
شيء غريب : زادت الأقمشة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء
ولا يجدون الغذاء وقالوا عن أنفسهم : أننا وجدنا الشيء الذى يدفع
الجلد ، ولا يدفع المعدة !

ولكن الانجليز وجدوا الأيدي الكافية لإدارة مصانعهم ، وكانت
هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوافر لديهم نفس هذا العدد من مصانع
الطعام .

بدأ الانجليز — مثلا — يستوردون طعامهم من الخارج ، أما
ملابسهم ، فمن الداخل .

وبعض أصحاب الأغنام أرسلوها الى الأرجنتين حيث الجو أفضل
والطعام أوفر ، وبعضهم أرسل مئات الأغنام التى أصبحت مئات
الالوف ، الى استراليا ..

وكانت المشكلة هى نقل هذه الحيوانات بعد أن تعبت وسمنت
الى أوروبا ، ولكن أكثر هذه الأغنام كان يموت فى الطريق وكانت
أمراض الحيوانات تنفثى بسرعة — وتهلك سفنا بأكملها .

وفي ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الأغنام والأبقار الى أوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلابا فى صناعة التغذية ولكن الناس فى أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . أما الأغنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه تلييه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الأرجنتين الى فرنسا وانجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم مجمدة سليمة . وكان ذلك هو اعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع . وانتشرت الثلاجات العائمة فى الموانى الاوروبية والموانى الأمريكية ، وانحلت مشكلة اللحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

والذا كانت الثلاجات قد انتقلت الفقراء فان الآلات الحديثة التى ظهرت فى ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء والآلات البخارية التى استخدمت فى المواصلات وفى المصانع قد استغنت عن الأيدى العاملة ، وكان أصحاب المصانع حريصين على الآلات لأنها تخلص الأيدى العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الأيدى العاملة .. ولا يزال ..

وفي ذلك الوقت من أوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكان الإنسان لا يريد أن يصدق أن القطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الإنسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المسابقات كان يحرص على اقتناء أحسن سلالات الخيول . وأحسنها بالفعل تلك

التي جاءت من أصل عربى ، وهناك خيول أخرى مولدة : أضخم وأثقل وأطول سيقانا وأضخم عنقا ورأسا ، ولكن أفضل الخيول جميعا هي العربية الرشيقة .

وفي الوقت الذى أخذت إنجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت إسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران إسبانيا هي الاخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف اسماء عدد من الخيول قد غيرت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذى كسب ثلاثين سباقا وثمانين كأسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . بل أن أبناءه من الخيول وهي معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى أصحابها بمليون جنيه ! .

وأصبح من المؤلف جدا فى أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن أين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم وأحجامهم ، والسباقات التى اشتركت فيها .

وفي إنجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى وفرصة دولية لتشارك أجمل وأقوى الخيول فى السباق والمراهنة .

وربما كان نابليون بونابرت هو أول من اخترع فكرة أرض السباق ، وأن تكون الأرض ناعمة وأن يكون الطريق أمام الحصان سهلا . فقد أرسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه فى إقامة سباق العربات . ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التى تجرها الخيول لأنها لعبة أفريقية قديمة ، وأن العربية تعوق الحركة وأن الأغريق كانوا

يتسابقون بالعربات لانهم كانوا يحاربون من فوق العربات وبها ..
أمام على أيام نابليون فكانوا يحاربون من فوق ظهور الخيول ،
فالسباق بالخيول هو مناسبة للتدريب على القتال ولذلك . أمر
نابليون بعمل أرض للسباق وتسويتها وتغطيتها بالعشب فيتمكن
الحصان من الانطلاق ، وإذا سقط من فوقه الفارس فلا تكون أصابته
خطرة !

وانتشرت لعبة السباق في أوروبا كلها ، وأصبح الأغنياء يتباهون
بأن لديهم أحسن الخيول وأكثرها عددا وبأن لديهم اصطبلات فخمة ..
وإذا كان الأغنياء قد انشغلوا بتربية الخيول فإن الفقراء قد وجدوا
لهم لعبة أخرى : السيرك .. ففي السيرك تلعب الخيول والحيوانات
الأخرى ... فالسيرك متعة أرخص ، وفي نفس الوقت فرصة لأن
يتفوق الفقراء على الأغنياء بالبراعة والصبر في مواجهة الأسود
والتمور وركوب الخيول .. والتصفيق للاعبين المهرة : أي للفقراء
من أمثالهم ..

وعندما يتعب الفقراء من الفرجة على السيرك ، فإنهم يذهبون
إلى حديقة الحيوانات ، ففيها الحيوانات من كل نوع جاءت من آخر
الدنيا لتكون جاهزة لتسليةهم في أي وقت !

« وبعد ذلك يذهب الناس إلى بيوتهم سعداء بما راوا ، وبأنهم
قد عوضوا ما فاتهم من امتلاك الخيول ، بالنظر إليهم والاعجاب
بأصحابها .. وينامون في الليل ، ويولد الأطفال في الصباح » —
كما يقول الكاتب الإيطالي البرتو مورافيا .

ففي إحدى قصص مورافيا يجيء الرجل الذي يعد السكان
ويسأل : كم عدد الأطفال عندكم ، فتقول الأم : عشرة .

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة ؟
ويرد الزوج : نعم يا سيدي عشرة .. ليس عندنا راديو
ولا تليفزيون ، ولذلك فنحن ننام في ساعة مبكرة !
— معقول .. ويمضي الرجل ينق ابواب البيوت الأخرى عينه
على الباب والعين الأخرى على السطح ، ليرى ان كان عندهم
تليفزيون !
وفي نفس الوقت تتزايد الحشرات بالوف الملايين ويصرخ الانسان
من الجوع في آسيا وأفريقيا !



نظرية التطور ! رد لاعتبار الحيوان !

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء
ورجال الدين وكانت الراهبات يمسكن المتأدبل
ويشترن بها الى ذلك القس الوسيم الرشيق الذي
جلس متحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء
في الكتاب المقدس . عن ان الانسان الاول كان
اسمه آدم . وان البشرية كلها قد جاءت من
سلاطته . . . وامام هذا القس واحد من العلماء
اسمه هكسلي جاء يدافع عن نظرية تقول ان
الحيوانات تتطور . . . وربما كان الانسان اصله
قرود . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شديد جدا
بينهما .

دخل المعالم الكبير وجلس في مواجهة القس . فقال له القس
متسائلا مستفكرا : أريد ان أعرف منك ان كان جدك لأمك أو لأبيك
قردا ؟ . .

وضحك الحاضرون وهنأوا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا . . ولا يشرفنى أن يكون واحدا مثلك يستخدم فكاهه وعقله فى مناقشة قضايا علمية لا يفهم فيها شيئا !

وانتهت المناقشة فجأة بانتصار العالم الكبير هكسلى . أى انتصار لفلسفة دارون التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

وعندما سمع دارون هذه المناظرة قال : كان من السهل جدا أن أموت لمجرد أن اتصور أن أحدا سوف يحاكمنى هكذا . .

فلم يكن دارون ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة . وإنما كان رجلا هزيلا مريضا . . فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات الى أمريكا وأستراليا كان عمره ٢٢ عاما . وكان أضعف المسافرين . وكان يعمل فى هذه الباخرة العلمية باحثا فى الحيوانات والنباتات . ولم يكن أحد يتصور أن تشارلز دارون هذا من الممكن أن يكون شيئا هاما فى التاريخ . ولم يخطر على بال أحد أن دارون هو كولبوس الجديد . . فإذا كان كولبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فإن دارون قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والانسسان . بل أن كل العلماء راحوا يدرسون من بعده تاريخ الحجارة والتراب . . لأن كل شيء له تاريخ وكل شيء على الأرض قد تغير وتطور . . فالتطور هو قانون الأشياء كلها ، كما أنه قانون الحيوانات كلها كما قال دارون .

وفى هذه الرحلة التى غاب فيها دارون عن بلاده قد درس عينات

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات . . واهتدى الى مجموعة من الأفكار . . ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو أولا ما يزال صغيرا ، ثم أن هذه الأفكار مختلفة تماما عن الأفكار السائدة أو « المتسيدة » للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما أرسل لبعض أصدقائه من اكتشافاته جامت عباراته خائفة مرتجلة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وإنما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول . . وقال .

وفي سنة ١٨٥٩ أصدر دارون كتابه عن « أصل الانواع » . .

وكان هذا الكتاب نقطة تحول في التاريخ الانساني والحيواني .

ولم يكن دارون أول من تحدث عن التطور تماما كما أن خريستوف كولبس ليس أول من اكتشف أمريكا . وإنما تحدث عن تطور الكائنات كلها أناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا عن التطور قبل دارون . وقبل أن يعرفوا أنه أصدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعض حتى اقتربت من الانسان .

وربما كان الفيلسوف الألماني هيغل هو أول من رسم خطوط التطور لكل شيء في الكون وأول من قال ان الأشياء تتطور بعضها . الى بعض . وان الله قد وضع خريطة وسلام تصعد عليها الكائنات وفقا لهذه الخريطة . وأن التطور من حالة الى حالة هي سنة الكون كله . .

وربما كان الفيلسوف الألماني شوبنهاور هو أول من قدم للانسانية

نظرية التطور التي تحدث عنها دارون . وكان شوبنهاور أمتع وأوضح من دارون . ولم يشك شوبنهاور لحظة واحدة في أن الإنسان أصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم أورنج تان . . وأبناء أفريقيا أصلهم من الشمبانزى . . ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب دارون بعام واحد دون أن يقرأ منه أو عنه سطورا واحدا . !

وكانت هناك نظريات كثيرة تفسر هذه التغيرات في تكوين الحيوانات نفسها . . لماذا رقبة الزرافة طويلة مثلا ؟ يقول عالم فرنسى اسمه لامارك : أن الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش في غابات . وكانت الغابات أشجارا طويلة . فاضطرت الزرافة الى أن تمد عنقها اللف السنين لكى تأكل الأوراق من قمم الأشجار . . وطال عنق الزرافة لهذا السبب . . ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . أو يجب أن تتكيف مع البيئة والا ماتت من الجوع . فالبيئة هي التي تؤدي الى تغير تكوين الحيوانات . أو حرص الحيوانات على أن تعيش هو الذى يرغمها على أن تتغير وأن تتغير والا ماتت !

ونحن الآن لسنا بعيدين عن دارون وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وأن الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة . . فإذا تغلب عليها عاش . . وإذا لم يفلح في ذلك مات . وكل الحيوانات التي ماتت هي حيوانات قهرتها البيئة وغلبتها الظروف . وأول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

صفات الأقوى . والأقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للأقوى . والأقوى هو الأصلح للحياة . . فالبقاء للأصلح . والحيوانات التى تعيش هى أصلح الحيوانات لان تستمر . فإذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى أسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يبلى سلاحه هو الذى يفنى . وإذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، أو العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته . . فالإنسان يختار ظروفه المواتية له . . ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان الأنسب . والإنسان الأقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الأحسن . والأحسن هو الأقوى والأقدر على أن يتكيف ويتواءم وأن يتلاءم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير دارون بعد أن حشد له الوف الأمثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت أكثر من عشرين عاما !

وقد أرسل دارون خطابا لصديق له يقول : فى يوم وأنا أنظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاءتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى رأسى وهزتنى . واندعشت كيف أننى لم أعرفها من قبل . لقد أدركت بوضوح أن الحيوانات لا يمكن أن تكون من أصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخابلها أو أنيابها أو أظفارها أو فراءها . . مستحيل . هذا ما اهدت إليه !

ولم يتصور دارون لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

قد زلزل العلم والدين . . فالعلم لم يكن يرى شيئاً من ذلك . وانما يرى العلماء أن القرد أصله قرد . . أما الدين فيرى أن القرد أصله قرد ، وأن الانسان أصله آدم وحواء . . ولا علاقة بين القرد والادميين !

وفي يوم كان دارون يتناول طعام افطاره عندهما دخل الخادم بخطاب . . فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا . . ولكن لم يستمر كذلك كثيرا . فقد أدرك أن حياته كلها في خطر . وأن سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك أن تأكلها نيران المدفأة أمامه . . فالخطاب يقول له : أن رجلا اسمه والاس يعيش هنا في جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض . . لقد حبسته الملاريا من أن يواصل رحلته الى أوروبا . هذا الرجل يناجر في الفراشات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من الهواة والباحثين في أوروبا كلها . . فهو قد أرسل أكثر من عشرين ألف نوع من الفراش والطيور الى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد أن لديه كل مزايا العالم الكبير . . وقد هداه البحث الى شيء جديد . . والرجل يقول أن أساس كل شيء في الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وأن الحيوانات تكافح من أجل أن تبقى . والحيوانات التي تبقى هي الأقوى . . وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله دارون !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الأفكار بعد أن قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالثوس عن تزايد السكان الذى سوف يؤدي الى جوع الانسان وفنائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب في طريق ليصل الى نفس النتيجة !

وليس هذا هو الحادث الأول من نوعه في التاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة في وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما . . فقبلهما بمائتي سنة اهتدى العالم الانجليزي نيوتن والفيلسوف الالماني ليبنتس الى منهج في الرياضيات واحد . . والى نظريات في «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة . . فكانت النظرية هي هي عند كل من الاثنين .

واهتدى دارون الى حل سعيد حتى لا يتهم الرجل الآخر بأنه سرق افكاره . وحتى لا يتهمه والاس بأنه هو الذي سرقه . فقرر دارون أن ينشر كتابه الذي ألفه في ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذي كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قدر لدارون أن يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة أيضا . . ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة . . ولذلك أصبح دارون هو صاحب نظرية التطور أو التطور نفسه أما ولاس فهو « الصدفة » . . أو هو من عجائب الصدف . ودخل تاريخ التطور الانساني على أنه نكتة : اذ كيف أن رجلا مريضا في إحدى جزر الملايو يهلوس طول الليل ويمسك القلم ويدفعه أمامه على الورق طالعا نازلا كآته ثعبان يهتدى الى افكار رجل آخر في لندن مريض أيضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون . . ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : ان الرجل المريض كان في حالة شفافية جعلته يقرأ افكار دارون وينقلها حرفا حرفا . . بل سطر سطر . . مع أن المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال . . ثم أن الرجلين لايعرف أحدهما الآخر !

شيء غريب هذا الذى حدث . . فعندما كان الانسان فى اوائل القرن التاسع عشر يفخر بأنه اخترع الآلة . وأن هذه الآلة قد أغنته عن الحصان والحصار ، جاء علم الحياة وعلم السلالات يؤكد أن الحيوان هو أصل الانسان . فإذا كانت العلوم الميكانيكية تريد أن تفخر بأنها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول وأعناق الأبقار وظهور البغال ، فإن علوم الحياة قد أعادت الحيوانات الى مجدها . . بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان . . بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان . . وانه ليس بعيدا أن تنظر الأجيال القادمة الى الانسان على أنه حمار أو حصان . . وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر أفضل . . المهم فى نظرية دارون انها حركت كل شيء ودفعته الى الامام . . او جعلت من الواجب أن يندفع الى الامام . . لأن الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت . . وان هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان . . اما الآلة فهي من اختراع الانسان . . والآلة أبسط وأتفه من أى حيوان . . فالحيوان تحفة فى الخلق . وهذا ما ذهب اليه رجال الدين ، الذين حاولوا أن يجدوا لهم مكانا جديدا تحت شمس هذه النظرية . فإذا كان دارون قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فإن رجال الدين بسرعة قد استنفادوا من النظرية الجديدة وتكيفوا معها حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين وبفوتهم قطار التطور . . ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوه حتى لاتضيع من تحتهم ومن أيديهم أهم أسرار الكون .

ولما توفى دارون يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٨٢ أعلن رجال الدين أن

هذا الشيطان يجب الا يدفن في مقابر العظماء • ومن الخير له وللشعب
الانجليزى ان ينفذ ما اوصى به وهو ان يدفن في حديقة قصره الريفى • •
ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا
بان يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن • • فكلاهما عظيم فى الحياة
وفى الممات وكلاهما خطوتان فى تطور علوم الطبيعة والحياة ! •



خلقنا الله بحياة لتفضى علينا بإنقاذ!

✱ المواصلات الحديثة قربت المسافات بين المدن والدول والقارات . وأصبح من السهل أن يتحرك الإنسان وأن ينقل أمراضه من مكان إلى مكان بنفس السرعة . . . فالإنسان يركب السيارة والباخرة وينقل معه ميكروبات أو حشرات تحمل الميكروبات والموت إلى أي مكان . مثلاً في القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجذرة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينتقل إلى الإنسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الألمان بأنه (الفصم) والفرنسيون وصفوه بأنه الكاريون .

لأن المرض عبارة عن احتراق داخلي للحيوان . ولم يعرف أحد كيف ينتقل من حيوان إلى حيوان إلى إنسان أو العكس . قالوا : أنه عفريت يركب الإنسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله . قالوا : لعنة من السماء حلت بالإنسان فنقلها إلى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين . .

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل عصي . . ووجدوها في الطحال . ولم يذهب احدا الى أبعد من ذلك . . حتى ظهر عالم المائى مجهول كان يعمل في غرفة ضيقة جدا في برلين . . هذا الرجل اسمه روبرت كوخ عبقرية فذة في الفهم والصبر وبعد النظر . وفي سنة ١٨٧٦ عرف كوخ اشياء كثيرة واكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات في أمعاء المصريين ومعدة الهنود وبرافيث اليابانيين وبعوض الأمريكيين . . وعرف الدوسنتريا ، وعرف الحمى الصفراء وعرف التيفوس والمalaria . . وكان كوخ هذا رجلا حكما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثنى بعبارات دقيقة جدا . . وأنا أحاول ان أسمعها بوضوح . وأنا أؤمن بأنها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف أصل الى شيء . .

ومن الاكتشافات التى أذهلت كوخ هذا انه عندما وصل الى اواسط افريقيا اكتشف أن ذبابة « تسي تسي » التى نصيب بالنوم حتى الموت كل من تلمسه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف أن التمساح هو أكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الإصابة بهذا المرض . وأعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !

واهتدى كوخ أيضا الى أن فئران السفن هى التى تنقل الأوبئة من بلد الى بلد . .

فانفئران السودان جاءت من الشرق فى سفن الصليبيين . .

فكان أوروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت والتعصب ، وعادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطاعون والابوئة التى اكلت عشرات الملايين من الناس — الكوليرا مثلا ! ثم جاء الفأر البنى اللون ..

فى سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. وفزعت ملايين الفئران واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مدينة استراخان .. ولاسباب لا نعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر وغرق منها مليون فأر على الأقل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى الشاطئ . وواصلت زحفها الى الجنوب الى اوكرانيا .. ثم الى الغرب الى بولندا . ثم الى بوهيميا .. ثم الى الشمال قليلا الى بروسيا .. حتى وصلتها فى سنة ١٧٤٠ .

وفى سنة ١٧٥٣ وققت عند ابواب باريس ودخلت .. ونكاثرت بسرعة ..

ووصل الفأر البنى الى أمريكا فى سنة ١٨٥١ .. واحتل بجدارة المكان المتواضع الذى شغله الفأر الاسود وراح ينقل بهمة ونشاط امراض التيفوس وكثيرا جدا من امراض الفم والقدمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الالماني روبرت كوخ ظهرت شخصية استولت على القارة الأوروبية كلها : باستور .. ذلك العالم

الفرنسي النحيف المشلول احدى الساقين . . هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب او باحث وانما على انه رجل دين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . او رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بانه سوف ينجح . . وانه سوف يشفى المرضى باذن الله . لماذا ؟ لا يعرف ؟ كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعه وبسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس . . اى لا يخاف ان تكون له افكار خاصة مختلفة عن افكار الناس . . وان له احلاما اخرى يكذبها الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها . . انها حياة قاسية جدا : ان يكون الانسان وحده مع افكاره . او ان يكون الانسان مثل خرستوف كولبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بانه على حق . . او مثل نوح عليه السلام يبنى سفينة على الأرض . والناس يمرون به ضاحكين ولكن نوح كان يؤمن بأن السماء سوف تمطر وان الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو بأهله من الغرق . . وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد أنقذ الناس والحيوانات ، فانه لم يفلح فى أن يقنع ابنه بأن يركب معه . . فنجى الناس وغرق ابنه . . وكذلك العالم الكبير باستور الذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح فى علاج اقرب الاقربين اليه . . وماتوا . . ولكن الملايين شفاهم او انقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعهدده ان يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة . . من اواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم . . بل انه حدث اخيرا جدا أن أصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم فى مدينة

لابلاتا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فأرسلوا عينات من الطعام ومن المصابين الى معهد باستور في باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . وأتخذ مئات آخرين . . وحدث أيضا أن انتشرت الحمى البابونية في إحدى مزارع قصب السكر في جزيرة مدغشقر (جمهورية مالاغشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد وأوقفوا سريان الطاعون بين المواطنين . أهم من ذلك أن العام كله يتوقع من هذا المعهد أن يأتي بالمعجزات . .

ويمكن أن يقال أن ملايين الناس في العالم اليوم أحياء بسبب هذا المعهد الفرنسي الذي أنشئ سنة ١٨٨٨ . ويوم إنشائه وقف باستور نفسه يتساند على واحد من أولاده ويبكى من شدة التأثير . . وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد أهليا مستقلا . . وقد شارك في بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وبنالمة من الصين ومرضى في أمريكا . . وملوك وإباطرة . . وظل هذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما . .



أما الأحداث التي يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها . . ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا . . هذه الكائنات — البكتريا — هي مصدر الشر والخير للإنسان . بعض هذه الكائنات تضره وتقلل إليه المرض . وبعضها تلغمه وتقوم بعمليات التخمر في الطعام والمشروبات . . وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات إذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها إذا جعلناه ضعيفا ، وحققنا به انسانا مريضا فانها تلهب حماس القوى الداخلية في الجسم الانساني ليقاوم المرض الدخيل . .

ونحن عندما نقول أن اللبن « مبستر » أى أننا قد بردناه ثم
سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وأنقذنا
حياة مئات الملايين من الأطفال في العالم من الإصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة في تاريخ باستور وفي تاريخ العالم كله
أيضا :

انتشار مرض الكلب — بفتح الكاف وكسر اللام . فالتاريخ
لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط أصيب فيها انسان بهذا المرض ثم
قدر له أن يعيش لأن كل المصابين ماتوا ، وكان لابد أن يموتوا ..

حتى كان ذلك اليوم الحاسم في التاريخ .. أنه يوم « ٦ يوليو
الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل في السادسة من عمره .. الطفل
اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل
قد عضه كلب مريض أربع عشرة مرة في أماكن مختلفة من جسمه
.. وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذى يعمل . ان هو
عالج الطفل ومات شملت فيه أمداؤه وقالوا : قاتل .. ألم نقل
لكم من وقت طويل ؟ ..

واذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقرية هى التى الهمت أن يحققه أربع عشرة مرة ..
لماذا هذا الرقم ؟ لا يدري . ولكنه الرقم الذى يتم عنده الشفاء ..
وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر في أوروبا كلها على أنه معجزة
المعجزات .. وشاء باستور أن يجعل هذا الطفل اعلانا حيا لنجاحه

.. فجعله بوابا للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، اقاموا له تمثالا — وما يزال — في مدخل المعهد كأكبر نجاح حققه باستور لنفسه والعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا عضتهم ذئاب مسعورة .. جاءوا الى باريس ولا يعرفون من اللغة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجهم وأنقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. أما سبب وفاة الآخرين فلأن الذئاب قد عضتهم قبل ثلاثة اسابيع . وقد جاءوا اليه متأخرين .

وألوف آخرون من كل أوروبا جاءوا الى باستور يطلبون علاجاً لأمراض أخرى لا يعرفها. ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى أنشأه حديثا أن يكون أملا لكل المرضى . والا يرد مريضا .. ولا يخيب أملا فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الامصال التى يبتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى .. وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال أن مريضا سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فاجاب : انا لم اعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

— كيف ؟

— أنها أصابتني بالشلل في إحدى ساقي .. ولا أعرف أن كنت
سوف أمشي لأجد علاجاً للذين أصيبوا .. أو لأجد وقاية للملايين
حتى لا يصابوا ..

— ولكنك أنتجت الملايين ..

— هذا رقم كبير ..

— فعلاً أنتجت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب إنقاذهم .. ملايين لم يولدوا
بعد .. هذا هو الذي يشغلني !

وقبل باستور سئل العالم الألماني العظيم روبرت كوخ عندما
جاء إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر :

— يا دكتور كوخ أنت مكتشف عظيم فضحك ليقل : مكتشف
عظيم لكائنات حقيرة .

— هل ترى أنها حقيرة فعلاً ؟

— لا شيء حقيراً في هذا الكون لكل شيء خلقه الله بعناية ليؤدي
دوره بملتهى الالتقان .. آه لو رأيت هذه الميكروبات كيف تعمل على
أداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تتسلل إلى الجسم
الإنساني وتحصن .. أن نشاطها ونماتها ونظامها يحسبها
عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهي

فى نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايان
بعظمة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا ..
وهذا هو الذى يبهرنى .. وانك احاول دائما ان اهرب من الوقوع
فى اسرها .. واتوقف بسرعة عن الاعجاب بها الى العمل على
الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة للحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من
اجل القضاء على بقية الكائنات !



هذه كائنات الناصرة لي عطمت الجيوش

جمع الملك لويس الخامس عشر رجاله
وتلفت اليهم يقول : ماذا يجب ان نكتب في هذه
الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسى .
واختلف الرجال حول الملك . . كل واحد يقول
عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك راي شيئا
آخر . . وأشار بيده . وجاء رجل وقال له :
هذه العبارة انقشها على مدفعى .

وضحك الرجال حول الملك . وكأنما اراد الملك ان يحرجهم
جميعا . فتساءل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل احد . وقال الملك :
انقش هذه العبارة على مدفعى : اقفلت باب المناقشة وفتحت
النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ اغسطس سنة
١٧٩٠ ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش بقى دائرا دائما فى كل مكان : هل
هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ ايهما الوسيلة لاقتناع الآخرين . .

أو ارغامهم على الاقتناع والنتيجة : موت عشرات الألوف .
مئات الملايين من الناس في كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل أن تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبك ، أسأل :
لماذا الحرب بينك وبين الناس . لماذا وصلت الى نتيجة فاضربها
في عدد سكان شعبك والشعوب الأخرى . والنتيجة مقنعة لأنها
هي الجواب الصحيح !

* * *

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذى عرفه الانسان !
الجواب طبعا : لا . . . فهناك حروب من نوع آخر . . حروب
بلا جيوش ولا اسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ،
ولا نياشين ولا اناط . . حروب اقوى من كل الحروب ، بل
هي الحروب التى اوقفت الحروب واعادت المجيوش من منتصف
الطريق . . ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقاتها . . هذه
الحروب هي حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة . .
ضد الميكروبات والحشرات والحيوانات التى تثقل الميكروبات
الى طعام الانسان وشرابه وملابسه وتقهره في معركة غير
متكافئة الميكروبات هي الاقوى دائما . .

ومن اقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيروdot أن الملك
الفارسي اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ٨٠٠ الف رجل
.. ونفذت الذخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضحية لمرض
لا يعرفونه . . فمات من رجاله نصف مليون جندي . . وعاد الملك
كسير الرأس الى بلاده !

أما قوات أثينا ، فقد هاجمها المرض ، وأطاح بجيشها وارقدته على الأرض . ودأست الجيوش بعضها البعض . . ومات ألف فارس وأربعون ألفا من الجنود .

وفي عام ٤١٤ قبل الميلاد حاصرت قوات قرطاجنة مدينة سرقوسة واكتسحتها الأوبئة وانحسرت المعارك قبل أن تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القائد هاتبيان قواته في صقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الأهلية في روما سنة ٨٨ ق.م وانتصار ماريوس المؤكد قد أضاعه انتشار مرض لا يعرفون اسمه في ذلك الوقت وقضى على عشرين ألفا من رجاله .

وفي عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية . . ولكن وباء استشرى بينها فعادت الى قواعدها في وسط أوروبا .

أما الحروب الصليبية فهي نموذج صارخ لما يفعله مرض الأسقربوط الذي يجيء عن نقص في التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم وعجزه من مقاومة أى مرض دخيل ففي ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية في اتجاه الأراضي المقدسة ، وزحف الجوع وسوء التغذية في الاتجاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرسان ، مات منهم خمسة آلاف .

وبعد أيام من الزحف على القدس سنة ١٠٩٩ لم يبق من

الجيش الذى يتكون من نصف مليون سوى ستين ألفا . . وفى سنة ١١٠١ أصبح عدد القوات الصليبية عشرين ألفا . . عادوا حفاة عراة يركبون الأبقار والحمير الى أوروبا !

وفى الحملة الصليبية الثانية التى قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها أن تلقى نفس النهاية . وام يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين ألفا !

وحدث شيء آخر فى سنة ١١٩٠ أن جاء مرشد تركى وسارت القوات الصليبية وراءه ، وإذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاسقربوط ، مات مائتا ألف ، أما الباقون فعانوا نصف أحياء . . ومات الكثير منهم فى الطريق حتى عبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا أن الامبراطور الألماني فريدريش الثانى قد غادر بأسطوله ميناء برنديزى الايطالى ، فى طريقه الى بيت المقدس . . ولكن فى احدى ليالى ١٢٢٧ أحس الامبراطور بالآلام شديدة واسهال دموى . لقد أصيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجاء طبيب الامبراطور . . ما الذى يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات أصيب أحد الضباط . . ومئات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشه من عرض البحر !

والاسقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من أمراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتا طويلا . . وقد أهلك ملايين الجنود فى التاريخ . . وهذا المرض ليس خطيرا فى ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الأمراض الأخرى . فهو يساعد

على التسلل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها
ايسر .. حتى الموت !

وفي الجمعة الاولى من سنة ١٢٥٠ أعلن القديس لويس ملك
فرنسا ، أن قواته تصاب بأشياء غريبة . وفسر ذلك بأن رائحة
الجثث هي السبب . وأن الديدان التي تاكل جثث القتلى في الانهار ،
هي التي تؤدي الى انتشار الأمراض بينها . أما المرض فهو
الاستقربوط طبعاً . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف
الحلق والشفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد
الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب .
وكان الجنود يصرخون كالاطفال . ولكن لا تفسير علمياً لذلك
وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى
مات يوم ٣ اغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ اغسطس
.. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد
استخدموا ضدنا أسلحة لا نعرفها — أما الكفرة الوثنيون —
الذين يقصدهم فهم المسلمون !

أما القوات الرومانية فقد أحرقت معسكراتها كلها يوم ٦
اغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . أصيب
الجنود بارتفاع في درجة الحرارة ورعشة وهذيان وآلام شديدة
في الظهر والساقين والبطن . وهذا التشخيص دقيق .. أما
المرض فهو التيفوس !

وهو من أخطر الامراض واشدها فتكا بالجيوش في العصور
القديمة !

* * *

ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا وأسبانيا في كل العصور القديمة بأنه صراع بين المرض والصحة . وأنه في كل مرة تزحف القوات يعود بهما المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذى يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والملك الفرنسى فيليب الثالث عاد من حملته على أسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوباء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين أسبانيا وفرنسا بانتشار مرض واحد هو التيفوس ، وهو يجيء من القمل الموجود في ملابس المتحاربين !

وفي أول أكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الامبراطور الالماني البرشت الى مشارف بغداد . وفي يوم ١٣ من نفس الشهر انسحب الامبراطور والجنود . فقد أعدتهم الدوسنتاريا عن مواصلة السير أو استئناف القتال !

أما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولى الإيطالية فقد أصدر قراره بالعودة . ولم يكن في حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو والوف من جنوده بمرض المزهري !

وعندما حاصر الملك شسارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الالمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون ألفا من جنوده بالدوسنتاريا .

أما الامبراطور الالماني ماكسميليان الثانى فقد فقد جيشا من مائة ألف جندى كان موجهها ضد السلطان سليمان . وكان في نية الامبراطور أن يزحف على المجر ولكن حدث شيء سنة ١٥٦٦ جعل الامبراطور يعدل عن قراره . . فقد دببت المعارك بين القوات . .

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سخونة وهذيان . فالجنود قد أصابهم التيفوس وعدل الامبراطور عن الحرب !

أما حروب الثلاثين عاما في أوروبا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس على كل المتحاربين . بل أن القوات الألمانية قد زحفت من اتجاهين على مدينة نورمبرج في سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين انسحبت الجيوش من هنا وهناك . والسبب : الاستقربوط ، والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزى تشارلز الاول كان في نيته أن يزحف على لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا بعد أن أصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدريش الاكبر على قوات الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا . . ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عاد الامبراطور منسحبا لما السبب فيرويه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن الامبراطور معتدل المزاج في هذا اليوم ، كان عصبيا جدا ، وكان رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله أو معجزة أو أن الدعاء الى السماء من الممكن أن يحقق شيئا ما . . وكان الناس حول الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن الطعام . وكان يحتفظ بأنواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق ولا بد أن أحدا قد نصحه بأن يتناولها كلما مرض . وتناول الذى لا أعرفه . وشفى الامبراطور من الدوسنتاريا . . ولكن الالوف من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتفرقوا في الغابات بسبب الاسهال الدموى الشديد . . وقرر الامبراطور وهو حزين تماما أن نجعل اشياءنا ونعود . ولا داعى للحرب !

وقد لعبت الدوستناريا دورا هائلا في انتفاذ الثورة الفرنسية —
هكذا يقول الطبيب الساخر الممتع هانس تسنسر في كتابه «الفران
والقمل والتاريخ» . يقول : في سنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور
فريدريش ملهم الثاني اعداد جيش من خمسين ألفا للزحف على
قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة
مع قواده . . وسألهم ان كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون
وهم متفرقون . نحن اقوياء وهم فلاسفة . .

وقرر الامبراطور الزحف . وتقدمت التسوات . ولكن فجأة
تفرقت القوات كل جنسدى في مكان . . وكان الجنود يسابقون
الضباط في البحث عن مكان يتوارون فيه . فقد اذابتهم الدوستناريا
.. وكان منظرا غريبا مجيبا . . كل هذه القوات قد تدلت على
شواطىء الراين تعاني من آلام هذا المرض الماچيء ا

وفي سنة ١٨٠١ ارسل نابليون قائده الجنرال لكلاك ومعه
٢٥ ألف جندى لاضمار ثورة نشبت في هاييتى . ونزلت القوات
الفرنسية الى شواطىء الجزيرة . وتراجعت أمامها القوات
الزنجية . ثم تقدمت الحمى الصفراء تحصد الفرنسيين وقتلت
منهم ٢٣ ألفا . . ولم يبق حتى من هذا العدد سوى ثلاثة آلاف
فرنسى عاثوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ ا

يقول كوركوب طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توقف بعض
الوقت في بولندا . واعاد تنظيم قواته . وراعى الاجرامات الصحية
ما كان هذا مصيره أمام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد
وقبل القوات الروسية . المرض أولا . والجليد ثانيا والارهاق
ثالثا والروس رابعا .

يقول كوركوف أيضا : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه
مائة ألف جندي .. أما الباقي فموتى ومرضى ومتجمعون ومقتلى .

أما المارشال الفرنسي ناي فقد أمره نابليون بأن يصمد ..
وصمد المارشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جنديا وضابطا
.. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل أن هؤلاء
الجنود قد أكلوا جلود الأحذية .. وأكلوا لحوم البشر .. كان
الجندي ينكمش على الجندي الآخر ويبحث في جسمه عن مكان لم
يصب بشيء ويأكله .. ويرتمى إلى جواره مسموما أو مريضا .
ثم ميتا بعد ذلك !



إن العلم الحديث قد كشف للإنسان أن هناك كائنات أصغر
منه وأقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو الذى أجمل من
الإنسان وأكثر فضيلة .. وهو الذى أحق بالعناية والاحترام ..
وانما هناك كائنات أصغر وأحق وأتفه مما يتصور .. هذه
الكائنات الضئيلة هى التى قضت عليه وأبادته وجعلته يشعر أنه
أصغر وأتفه .. وعلى ذلك يجب أن يتواضع الإنسان قليلا أو كثيرا
.. فليس هو السيد المطاع الأمر الناهى القادر على كل شيء ..
أو القادر على كل شيء إلا شيئا واحدا : هذه الحشرات أو هذه
الميكروبات التى لا يدريها .. ويجب أن يتفرغ لها ، فهى لا تكف
عن التكاثر والاتحاد دفاعا عن حياتها .. ويوم ينقرض الإنسان
سوف تكون هذه الكائنات وارثة للأرض وما عليها ومن عليها !

لذخاء عن الناس والكلاب نظريّة

أديبة فرنسية كويات هي التي قالت : لو لم
أكن انسانا لتمنيت أن أكون حيوانا . ولما
سئلت : أي الحيوانات تختارين ؟ قالت : إن
أكون قطّة تلعب مع كلب في قفص قروء على
جبل الأسود . ولما سئلت مرة أخرى : ولكن
لماذا ؟ قالت كويات : فقط أن أعيش بغريزتي
بلا خوف . . بلا حدود بلا حدود بلا تدخل من
أحد من رجال القانون أو الدين . . من هذه
الأكاليب التي يسميها الناس : حضارة
الإنسان . .

اننى لا أرى الإنسان أسعد من الحيوان . . اننى لا أرى
الطائرات أخف من الطيور . . اننى لا أرى الرجال أشجع من
الأسود ولا أكرم منها . . اننى لا أصدق أن الإنسان هو أجهل
وانكى وأقوى هذه المخلوقات على الأرض . . اننى كلما عرفت
الحيوان ازدادت احتراما له ، واحتقارا للإنسان . . أسعد لحظات
عمري هي التي أشعر اننى فيها مثل قطّة أو مثل كلبة . . وأن كل

الذين حولى ليسوا من البشر . . . وذلك أجد سعادتي الكبرى في أن
أغمض عيني حتى لا أرى آدميا واحدا . . . وأعيش بخيالي مع مالا
عدد له من الحيوانات . . . اننى عندما افتح عيني أجد الانسان ،
وعندما أطبقهما أجد الحيوان — ولذلك سعادتي الكبرى أن اتفل
عيني والباب والنافذة وأسحب الغطاء على رأسي وأمسو كالهرة
السعيدة بأنها تجردت من انسانياتها المريعة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقواه كوليت التي ألقت كتبها عناوينها :
السلام عند الحيوانات . . . كيكي اللذيذة . . . سبع محاورات مع
الحيوانات . . .

ولكن أحب الحيوانات الى كوليت : القطعة . . . لماذا ؟ لديها الكثير
جدا الذي تقوله من نعومة القطعة ونظافتها . . . ورشاققتها . . .
وتسللها في الليل دون أن يشعر بها أحد . . . كأنها فكرة أو كأنها
شبح أو كأنها مرض . . . أو كأنها شيء يطير دون أن تدركه جاذبية
الارض . . .

لتقول كوليت أيضا : لا أعرف لماذا هم في الشرق يعتقدون أن
القطعة لها سبعة أعمار . . . وأنها من الممكن أن تموت أكثر من مرة
. . . أو من الممكن أن تعيش أكثر من مرة . . . أن القطعة — وهي
شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عمر . . . تكل ما يحتاجه
الانسان في الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة واللمسة والفكر . . .
لان تعاسة الانسان هي خشونته . . . خشونة الكلمة والفعل !

وهذه القطط دخلت أوروبا مع الحروب الصليبية . وكانت
حيوانا غريبا . ولكن بسرعة عرف الأوروبيون فضائلها : أنها

تهجم على الفئران تأكلها ويكفيها ذلك فخرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى أوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطة بل أن الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها : لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ الناس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لأن القطة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب في فروة جلدها . ولكن العلماء يؤكدون أنه رغم هذه النظافة المؤكدة فإنها تنقل الميكروب أيضا . بدأ الناس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون في معاملتها وفي الاقتراب من أظافرها وأنيابها وفمها . . ورغم تحذيرات الأطباء فإن الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . وأكثر الأطباء يحذرون من القبلات بين الرجال والنساء ويرون أن الفم أقل مكان في الجسم كله نظافة وطهارة . وأن العدوى مؤكدة عن طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويقول أطباء آخرون : (أن الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القبلات الحارة . وأن القبلات التي تنقل الميكروبات هي الباردة التي لا احساس فيها) .

وليست كل القطط مفيدة : أي تقتل الفئران ، أنها القطط الضالة أي أن القطط التي تفيد الإنسان هي التي لا تستفيد من الإنسان .



ولكن عرف الإنسان أن القط حيوان نظيف ، ولكنه غبي وعنيد . . وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . فتكون للحراسة وللصيد ولاتقاذ الجرحى في الحرب والسلام . .

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدت سفن الفضاء .

وعاش الناس ألوف السنين يتغنون بإخلاص الكلب لصاحبه ووفائه حتى الموت : فكثيرا ما عاشت الكلاب تحت أقدام أصحابها، حتى اذا مات صاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت . وفي القرآن الكريم قصة أهل الكهف الذين ناموا في كهفهم وظل كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة . .

وكان نوم الكلب واسمه « قطير » رمزا للوفاء الطويل، والانتظار الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم كلمة « قطير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من وفائها ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لإخلاص الكلب . . أو حبها للإخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها اخلاص ولا الانسان عنده وفاء . . وانما كل ما هنالك مجموعة من الأفعال والأفعال المنعكسة المترابطة . . مثلا : اذا أتينا بالكلب وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندق جرسا . فان لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس . . واذا سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى . . وكل تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما . . فالكلب الذى يرى صاحبه فينام عند قدميه أو يأكل أو يشرب . . ويعتاد على ذلك ، فاذا تغيب صاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب لا يأكل ولا يشرب . . لا حبا ولا اخلاصا . . ولكن مجرد فعل ورد فعل . . فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

ولكن الناس يرون فى الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحباً وطاعة
عمياء — يفتقدونها بين الناس !

* * *

واذا كانت أديبة فرنسية كولينيت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا
ينافسها الا أديب بلجيكا مترلنك الذى ألف كتابا عن « حياة النحل » .
وهو لا يقصد النحل بالذات . . ولكن ينظر الى الانسان من خلال
النحل . . ويتمنى لو كان للانسان بعض مالمدى النحل من حب
واخلاص وصدق وتعاون وانكار للذات . . ولكن احدا لا يستطيع
أن يألف النحل أو يستأنسه أو يجعله طبعاً مثل الكلاب . . ولذلك
بقى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب
منها أى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر قديم واستخدمه فى نقل الرسائل
من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم
الفراعنة هذا الحمام . . واستخدمه الاغريق . ويقال أن البحارة
الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون
بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها أو فى رجلها علامة
وهذا معناه أن البحارة قد وصلوا فى سلام . . وفى ذلك الوقت
لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون .
لأسباب غير معروفة الآن عن استخدام حمام الزاجل الذى انتشر
فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسرفون فى استخدام
حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء أو الولاة ليس به
برج أو قفص . وكثيرا ما يكون قفص حمام الزاجل فى قاعة الاستقبال
فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تلقى الخليفة أو السلطان أو والى

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام
أو الحب ..

وفي سنة ١٥٩٠ عندما حاصر ملك فرنسا هنري الرابع مدينة
باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للافلات من هذا الحصار
الا بحمام الزاجل يطلقونه في سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل
اليهم الاخبار .. ويقال ان الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها
على الحمام ولكن الحمام اسرع في الطيران ، واكثر طاعة لغريزته
ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها او التحكم في طيرانها او
انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن اشهر حوادث حمام الزاجل في القرن التاسع عشر ان
المليونير اليهودي روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليون
وولنجتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل .
ولم يكن احد يشك في ان نابليون هو الذي سوف ينتصر . ولذلك
هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسهم
لان الحمام نقل اليه ان ولنجتون الانجليزى هو الذي انتصر . وقد
عرف روتشيلد هذه الانباء قبل ان تعرفها الحكومة البريطانية .
وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين!
وفي سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالماني رويتر حمام الزاجل
بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تلغرافية .

ورغم وجود الخطوط التلغرافية ظل استخدام حمام الزاجل
منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا في
الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن اشهر الرسائل
التي عرّفها المقاتلون في ذلك الوقت ما بعث به مستشار المانيا
بسمارك فقد ارسل رسالة مع حمامة لاحد قواده . الرسالة تقول:
طبعاً فهمت !

وواضح انه يخشى أن تقع هذه الرسالة في يد الفرنسيين . ولكن القائد فهم ما يقصده بسمارك . . ولم يفهم أحد غيرها شيئا حتى اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل في بالونات . ويطلقون البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج . ويقال أن حمام الزاجل قد حمل أكثر من مليون رسالة الى أهل مائتي ألف فرنسي .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان الذى عاش فيه . والذى يحدث هو أن الناس ينقلون الحمام الى أى مكان ثم يطلقونه فاذا به يعود الى مكانه الاصلى . .

مهما كانت المسافة . . قد تكون ألفا أو عشرين ألف كيلو متر . . ويستطيع حمام الزاجل أن يطير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة . .

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل فقد قرأ عبارة للشاعر الالماني شيلر تقول : ما لم يتمكن العقل من السيطرة على كل شيء ، فان الجوع والحب قادران على أن يتحكما فى تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاچولى هذه العبارة وكان يحب حمام الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى يجعله يطيع الاوامر . . وابعاده عن انثاه أيضا .

ولذلك لجأ مالاچولى الى حيلة . . فكان حمام الزاجل اذا هبط عنده أطعمه كثيرا . . ولكن أبعده عن الانثى أو عن الذكر حتى

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس ..
وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط في مكان واحد ،
فانه يهبط في مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل في سلوك حمام
الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام
الزاجل . هناك رأى يقول : ان الحمام يهتدى بجاذبية الارض ..
ورأى يقول بضوء النجوم .. ورأى يقول أنها ملوحة الهواء لو
الماء .. ورأى يقول بأن هناك بوصلة في رأس حمام الزاجل يضبطها
ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش
تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعل
بقواتها المسلحة قبل دخول المعركة . وفي المانيا وحدها في ذلك
الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون أن يلقنوا حمام الزاجل دروسا أخرى كما
فعل الهاوى الايطالى مالا جولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجة
معقولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى الفى مهمة حمام
الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات
اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف أحدا أو يعوقه ..
فالعالم كله أصبح قريبا جدا .. ففى امكانك أن تتصل بأى مكان
فى نفس اللحظة وأنت جالس فى بيتك !

* * *

ولا شك أن ذكاء القط أقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود
الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة أيضا . وحمام

الزاجل ليس ذكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها تفسيراً علمياً .

وربما كان الحصان أذكى هذه الحيوانات جميعاً . فقد استطاع أحد النبلاء الألمان أن يجعل حصاناً اسمه هانس أن يكتب بساقه الأرقام . . أو أن يعلمه الجمع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث أنه أخطأ قط . .

واستطاع النبيل الألماني فلهم فون دوستن أن يجعل الحصان يكتب كلمات المانية طويلة . .

واستطاع أيضاً أن يروض أحد الخيول العربية على كتابة اللغة الألمانية بدقة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطئ في كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب أكثر من مائة وخمسين كلمة المانية . .

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول أن تتعلم أو تتكلم . .

* * *

ولكن أثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات في تاريخ الإنسان طويل عريض . . ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الإنسان فقط أن يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببه . . ولكن في ذهنه دائماً أنها هى الأقوى رغم أن أحداً لا يصدق ذلك ، أو لا يريد !

عندما أعلن حوسولجي حرب الأبقار ضد الأغنام!

ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان . وإنما يعيش الإنسان بالخبز وأشياء أخرى . وإذا لم يجد الإنسان الخبز ، فلا بد أن يتحدث عن شيء آخر بديل . . ومملكة فرنسا عندما ثار الشعب عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة إذا لم يجدوا الخبز : فليأكلوا البسكويت . وكانت هذه العبارة امطاراً من البنزين على نار الفضب . فالملكة ظنت أن الشعب يجد الخبز والبسكويت معا . فإذا لم يجد هذا فيمكنه أن يتجه الى ذاك . .

ولم تفهم الملكة أن الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث الآن هي أن يجد الناس الخبز والبديل عن الخبز حتى لا يثور . أو حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وإنما بسبب المرض ، أو بسبب الحوادث أو بالحروب . ولذلك من الضروري أن يكون عدد الناس محددا حتى تكفيهم موارد الطبيعة . . فإذا لم تكف فعلى

الانسان أن يهز رأسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الانسان الحل عن طريق الكيمياء . فهي نعوضه عن الذى فقدته . وهى التى تملأ فراغ الجيب والمعدة . .

فالانسان مثلا عندما كان يجد السكريات فى عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعامه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفى حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا فى ليالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو رونق الكنائس . وظلت الكنائس هى المستهلك الأول لشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومن بعده الكهرباء لم يعد أحد فى حاجة الى شمع النحل . . وبعد ذلك ظهر السيكاين ليعلن انه ليس من الضرورى أن يميت الانسان نفسه من أجل السكر فى القصب وفى البنجر وفى العسل . . وعندما أعلن أن السيكاين خطر على الصحة ، وانه يؤدى الى الاصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما أعلن أن النحل أيضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة فى الحدائق . وأن السموم موجودة فى الزهور التى يمتصها النحل ، وأن نسبة من السم ننقل الى العسل نفسه ، عاد الانسان ليبحث عن السكريات فى الفاكهة . ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت أيضا الى الفاكهة . وعندما حار الانسان ما الذى يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانسانى قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الانسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن أو الزبدة كافية لاطعام الانسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية فى المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تذوب فى الجو الحار .

وقد تلقى نابليون الثالث خطابا من أحد قواده يقول له : مطلوب معجزة . أن جتودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تتبخر . وأعلن نابليون عن مكافأة مالية كبيرة لمن يجد حلا . وفي ذلك الوقت تصادف أن أحد العلماء الفرنسيين كان مشغولا بالبحث عن حل .

هذا الرجل اسمه ميج مورييس . هذا الرجل اهتدى الى السمن الصناعي . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا . فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتية . وكان ذلك ميلاد السمن النباتي أو الصناعي . وأنتجت فرنسا هذا السمن على نطاق أوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية وزيت الحوت وانتجته بكميات أكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة أن كثيرا من الدول تطلق على كل أنواع السمن الصناعي اسم : الهولندي ..

واقبل على هذا السمن الصناعي فقراء الناس طبعا . أما الأغنياء فعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن ..

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الالمان استخراج الزبدة من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها أحد . وانما جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم يدفعها أحد الى الامام الا بعد ذلك بعشرات السنين في أمريكا .

وعاد الالمان الى استخراج السكر من الخشب . واستخراج السيكرين من القطران في سنة ١٨٧٩ . وكان السيكرين هذا أشد حلاوة من السكر . . . مرة وبأسعار أرخص من استخراجه من الخشب .

ولم يفلح العلم الحديث في استخراج بروتينات الحيوانات في المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات ليأكلها الانسان . ولكن هذه الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكي يكون طعمها لذيذا يجب أن نذبحها في سن صغيرة !

واذا كانت بعض الأطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصوف الطبيعي والحرير الطبيعي والقطن والكتان ، كلها لم تعد كافية لاحتياجات الانسان صحيح أن الأقمشة هي ليست الا نوعا آخر من ورقة التوت التي تغطت بها حواء . . والأزياء ليست الا تنوعا في شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شيء أمامه متوافرا في الطبيعة . أما في العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان لم يعد الصوف يكفى للملابس ولا الحرير ولا القطن ولا الكتان . فمالانسان يأكل الأغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من أن يجد حلا . والذين حاولوا كثيرون جدا . وربما كان الكيميائي الانجليزي روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو أول الذين حاولوا أن يجدوا بديلا عن الحرير الطبيعي فقد اهتموا الى محلول . وصب هذا المحلول في اناء به ثقوب رفيعة . ونزل السائل على شكل خيوط حريرية .

واهتمدى كيميائى فرنسى الى شيء من ذلك ، وعرض اختراعه في باريس سنة ١٨٨٩ هذا الرجل شاردونيه . وحاول الألمان شراء الاختراع . فاعتذر الرجل بأنه باهظ التكاليف . وانه سوف يوالى البحث عن سواثل أرخص . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء وبين الذين يربون دود القز والذين ينسجون الحرير . وكانت التهمة: ان هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الألوف من الأنوال اليدوية لغزل الحرير الطبيعي !

وعلى الرغم من أن اليابان هي أكبر مصدر للحرير الطبيعي ، فإنها حاولت أيضا أن تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية أو التجارية الأخرى . ان اليابان أرادت أن تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هي لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفي نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعي في أوروبا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجا للموقف . فاقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعي واستحضاره في المعامل .

أما الأمريكان فقد كانوا أسرع الجميع في الاهتمام الى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يوناني الشكل : نايلون . وفلح الأمريكان في اختراع انواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن أن تصل الى الوف الكيلو مترات دون أن تنقطع .

وقبل الحرب العالمية الاولى بالضبط اهتمت ألمانيا واليابان في وقت واحد الى صناعة الصوف — أي الى الصوف الصناعي . ودخلت اليابان في حرب مع استراليا أكبر مصدر للصوف الطبيعي في العالم . وهاجمت دول كثيرة الصوف الصناعي في ألمانيا واليابان ، باعتباره « جنونا » فازيا أو فاشيا . وان هذا الصوف كساء الفقراء . وأن هذا الصوف الصناعي اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة — أو جمال صوف الأغنام في استراليا ، حتى تبقى استراليا هي سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هي صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا ذليلا !

انن لقد دخلت المعامل في حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الأبقار هي التي دخلت في حرب مع الأغنام . فقد اهدى

العلماء الى ان لبن الأبقار هو أحسن مصدر للصوف الصناعى .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ أعلن موسولينى على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تفتح الصوف من لبن الأبقار . وكان هذا الاعلان ردا على تهديد أوربا لموسولينى بأنها سوف تضرب عليه حصارا شديدا بسبب حربه مع الحبشة . وأقبل علماء الكيمياء على اللبن الأبقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكازين . ومن العجيب جدا أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الألوان . هذه حقيقة مؤكدة . وأنهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التى اهتدى اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لاينثال . ومن هذه المادة خرجت البديل والبنطلونات الايطالية ، ولا تزال !

وأصبح لبن الأبقار من أهم المواد التى يستعين بها العلم الحديث فى صناعة البدائل أو المعائن ..

كما أن العلم الحديث قد استغنى أيضا عن المخلفات الحيوانية - الاسمدة العضوية . واهتدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعيش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلا بعد . أو عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . ففراء الثعالب مثلا لا يزال مطلوبا . وكانت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر اكبر مركز لتجارة الفراء يكل أنواعها حتى أن أمريكا أنشأت خطا

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا أمريكيا اسمه : استور اقام مركزا في شمال أمريكا . بل انه انشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى . فهذا الرجل استور قد حول بفكاه تجارة الفراء الى شمال أمريكا ودخل بها في حرب مع روسيا وجاء الاتجليز واستولوا على هذه المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقي الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار الكنديين يعرضون نوعا غريبا من فراء الثعلب الفضي . وكان هذا النوع من الفراء زلزالا في أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وأن يزاوجوا بين بعضها البعض حتى انتهى التزاوج والتهجين الى نوع فضي نادر . ولكن بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب . واقبل التجار على تربية الثعالب في غابات واسعة . فقد لاحظ التجار أن الثعالب التي يحبسونها يكون فراؤها خشنا . أما اذا عاشت الثعالب في ظروف طبيعية او كالطبيعية فإن فراؤها يكون أكثر نعومة وليونة . ولاحظوا أيضا أن الثعلب يميل الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدي الى الزيادة البطيئة في النسل . فحاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول الأمر . فامسدها فأصبحت للثعالب الذكور أكثر من زوجة . وانتهوا الى أن ثلاث زوجات هو الحد الأقصى للثعلب الواحد . . ولكن اهتمدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من الممكن أن يكون له حريم من اناث دون أن يؤثر ذلك على فراء صفاره .

وفي ذلك الوقت — أي سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الفضي سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فأوقفت هذا الجنون . وفي سنة ١٩٣٨

دلت الاحصائيات على أن في كندا وحدها أكثر من عشرة آلاف حظيرة
للثعالب الحظيرة الواحدة مساحتها ألوف الأقدنة من الغابات !

وظهر منافس خطير للثعلب : حيوان الشنشيللا فى بىرو ..

ثم ظهرت أغنام كاركول فى ايران .

وكان التجار يلجأون الى اجهاض الأم قبل أن تلد بقليل ثم يسلخون
جلد الوليد . حرصا على أن تظل فروة الحيوان المسكين أكثر
نعومة . وفى بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العادية
بساعات ..

ولابد أن أناقة المرأة هى المسئولة عن حياة بعض الطيور وموت
أكثر الحيوانات . مثلا : لولا أن سيدة فرنسية جاءت من الجزائر
تزرع ماري أقطوانت ما عاشت مئات الألوف من النعام . فقد جاءت
هذه السيدة تهدي الى الملكة ريش نعام لتضعه على رأسها
أو لتكون مروحتها . وأصبح ريش النعام موضحة . وأقيمت مزارع
للنعام فى الجزائر . وحتوت هذه المزارع عشرات الألوف من هذا
الطائر الذى ينزعون ريشه مرتين فى السنة . وكان لابد من العناية
به وبصحته نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش
أن ذكر النعام اذا كانت له أناث كثيرة ، وضعت الأناث بيضا
قليل . فهى اذن ليست مشكلة الأنثى ، وإنما هى مشكلة قدرة
الذكر على أن يكون زوجا لعدد كبير من الأناث . وحددوا للذكر
ثلاث أناث فقط تضع مائة بيضة فى السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

جلده حذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة أنيقة . ولا بد أن يكون ذلك في سنه الصغيرة . وبعد سلخه لابد من دباغة الجلد وتلوينه أو الاحتفاظ بلونه الطبيعي ..

وفي كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتقوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام أو جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الأنواع والأحجام والألوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية في البلاد الحارة . ففي الهند مثلا تجد أن الثعابين تأكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت أكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الإبقاء على الثعابين لانتقاذ الغلال . وفي الهند دعوات صارخة للإبقاء على الثعابين من أجل الجياع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على أناقتها ولو مات أهل الهند جوعا !

ومن أجل أناقة المرأة أيضا نزل الرجل الى أعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ في قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود في الخليج العربى — أو كان موجودا — وفي شواطئ اليابان والصين . وقد ارتفع اللؤلؤ على أعناق الجميلات . ويقال أن اللؤلؤة تحزن على صاحبها ويتغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعدت عن موطنها . ويقال: ان الملائكة اذا بكوا نزلت دموعهم الى البحر فأصبحت لوليات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب في النبيذ في ليالى العشق أصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة — يقال !

أما طريقة استخراج اللؤلؤ فهي أن ينزل الغواص أو الغواصة — أكثرهم من النساء — الى الماء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ . . وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين في تكوين حبة واحدة .

وقد اهتم رجل صيني منذ سبعة قرون الى انه في الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة أسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا . . ذرة رمل أو ذرة من المحسرة أو الحصى . . وفي بعض الأحيان اهتم الى شيء غريب فكان يضع حصة صغيرة ويرسم على هذه الحصة بوذا . ويضعها بعد ذلك في جسم حيوان اللؤلؤ . . ثم يجيء هذا الفنان العظيم ويغطي هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ . . ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها العميق في نفوس المؤمنين . . .

وجاء استاذ يابانى سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسمه متسكورى . وأدخل في جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجيء الحيوان ويغطيها بهذه المسادة الفضية الشفافة .

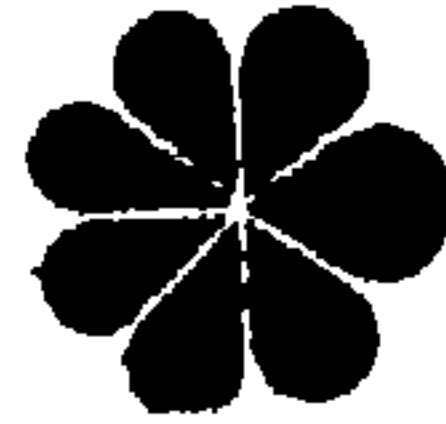
* * *

ولكن رجلا واحدا استطاع أن يجعل « اللؤلؤ الصناعى » أشهر تجارة في العالم واستطاع أن يقنع العالم كله أن اللؤلؤ الصناعى أجمل وأروع . وأنه يصعب على أى انسان أن يفرق بين الاثنين . وفي ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الآن بمجرد وضع اللؤلؤ في الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى أكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع في جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ بأكثر من مائة ألف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الأمريكى من اللؤلؤ . وقدمه فى معرض دولى ..

وقد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من هبات اللؤلؤ . وأعترف بأننى لم أعرف أهمية هذا اللؤلؤ أو ضرورته لأحد . وقد كنت ألعب بهبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . فنجد بالعات اللؤلؤ يجلسن على الأرض . وقد وضعت كل واحدة « قلة » من اللؤلؤ .. واجلس أمامها والعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. فنجد أحيانا حبة واحدة وأحيانا حبتين أو ثلاثا .. وأنكر أننى كسبت فى هذه اللعبة الوف الهبات . ولا أنكر الان بالضبط أين نسيت هذه الهبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى أمريكا الى أوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت أننى أضعت ثروة طائلة — ولم أكن أدري ذلك — فقد كنت مشغولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا أروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ — واعتقد أن أكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !



شجرة واحدة تكفي هناها وانت تعرف!

بعد هذه الرحلة الطويلة في حياة الحيوان ،
هل له مستقبل ؟ هل ستتحول الحيوانات بعضها
الى بعض ، كان يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول
بعض الزواحف مرة اخرى وتكون طيورا ؟ هل
ترداد الاصابع في اقدام الحيوانات ؟ هل الانسان
نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الالوف من
السنين لم تغير من الحمار . فهو حمار منذ كان
حمارا . والخنزير كذلك ..

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشابه الكبير
بين القروود والانسان . وقال بعضهم : اصله قرد — أى الانسان
أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن ان يتطور القرد فيصبح انسانا
في المستقبل . صحيح ان التاريخ لم يحفظ لنا حتى الآن تلك
القروود التى تحولت الى انسان . ثم انه ليس بين القروود فصيلة
واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها في الحياة .
وكل ما يقوله العلماء هو ان مرحلة من مراحل تحول القروود الى
بشر ، قد فقدناها .. أو قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

.. انما هى اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لماذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخفائها لكى يدوحننا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات أخرى فى مئات الألوف من السنين فلن يطرا عليها أى تغير آخر .. لأن الماضى هو صورة المستقبل ، أو هو الحروف الاولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على عصر جليدى آخر .. وأن المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات أخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجما وأضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاشت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجاريا يتقيها ويعيش . انها قاعدة فى الحيوان وفى الانسان أيضا !



ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى أيضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لماذا ؟

الجواب انه يجب أن ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئة الحيوانية والنباتية والانسانية والجوية أى الحياة (الاجتماعية) أو (الجماعية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نساغر الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهندية أو الواحات الافريقية والاسيوية كما كان يفعل دارون وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

وأنت ترى الفراشات والحشرات المتسلقة : هذه الشجرة مثل
فنجان في يد قارئة الطالع . . مثل كوتشينة يلعبها قارئ الحظ . .
ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات
معا . . أو كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض
.. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات،
معا ومستقبلها مع الانسان — وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو
الذى يحدد لهذه الكائنات أعمارها ومستقبلها . فمثلا في الهند :
الشمابيين تعيش على الفئران ، والفئران تعيش على القمح
وعلى القمح يعيش الانسان . . اذا قتلنا الشمابيين زادت
الفئران وأكلت القمح وأرهقت لانسان . . واذا قتلت الشمابيين
والفئران وانفردت الدودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان
الدودة أيضا توفر له القمح . . ولكن في نفس الوقت اذا زاد عدد
الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان . . انها سلسلة طويلة من
الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل في يد الانسان .

مثلا : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه
البعوضة باستخدام المبيدات وباستخدام وسائل العلاج عاش
الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا
الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية — أى
من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان
والقرد والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان
في نمو الجنين وفي الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة . .
فالانسان ينمو ببطء . . ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الأقوى .

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال أكثر الحيوانات الكبيرة عددا .

فقد أعلن المعهد الدولي للزراعة في روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : في العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الأغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان . . ومثل هذا العدد من البشر أو أكثر . فعدد سكان العالم حوالى ألفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الانسان في الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك في ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدموع التى سالت على خدودنا حزنا على ما أصاب الانسان على يد الانسان . ولكن خسائر الحيوانات في هذه الحرب كانت أضعاف خسائر الانسان .

في أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠ ٪ . . ونقص عدد الحيوانات . . وزاد عدد الأبقار في أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليوناً وعدد الأغنام ٢٦ مليوناً وعدد الخيول ١٨ مليوناً !

وفي أثناء الحرب الاهلية في الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور في أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليوناً . . وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيض .

والانسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه . . ولو وجد الانسان مورداً آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة في اباداة هذه الطيور والحيوانات معا . فكأن بقاء هذه الحيوانات سببه أن علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية . . وعلماء الكيمياء في العالم هم الذين سيقرون ان كانت هذه الحيوانات

ستعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هذه
الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !

* * *

ومن المؤكد أن الانسان قد قتل الملايين من هذه الحيوانات والطيور
عندما اخترع السهام والنبال . . واضعاف هذه الكائنات قد قضى
عليها الانسان عندما اكتشف البارود . . وفي أمريكا ، وبسبب الزحف
الى الغرب ، أحرق المهاجرون الجدد الغابات والمراعى فهانت ملايين
الحيوانات وانعدمت تماما . . فالجاموس الوحشى أثناء الحرب
الأهلية الأمريكية كان عدده يبلغ ستين مليونا أى ضعف عدد سكان
أمريكا فى ذلك الوقت . فأين هذه الجواميس الآن ؟ انها فى حدائق
الحيوانات فقط ؟ . . وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية
تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف
أعضاؤها عن أكل اللحوم . . اذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابتقاء
على الجواميس الا خوفا عليها من التلاشى . . ولو كانت هذه
الجواميس بالملايين ما طالب أحد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئا قليلا . ولن يكون
عددها بمئات الألوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هو
احتياج الانسان الى الفرجة عليها . . مثل كل حيوانات حديقة
الحيوان : الأسود والنمور والضباع والذئاب . وهذا هو أحد أسباب
اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه
الحيوانات فى الأقفاص لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر . . ولذلك
لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط أفريقيا قد حوت أقفاصا للقروود
. . لأن الناس يجدون القروود على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى
جمالية . فالبيغاء وطيور الكنارى قد أبقي عليها الانسان لأنها

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك عاش الطاووس . . ولا يذكر أحد في كل العصور أن أحدا أكل الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالى الثمن . فقط في إيران وأثناء مهرجان فورثس والاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة الفارسية . في هذا المهرجان قدمت إيران للملوك والرؤساء لحم الطاووس . . والطاووس اشترته إيران وبعثته الى مطعم ماكسيم الشهير في باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة برسبوليس في مخيمات الملوك والرؤساء — ولوقدوموا الى الطاووس في سندوتش ما أكلته . لكن في هذا الجو الخيالي ومع الألوان والموسيقى والاكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومراى من كل رؤوس العالم ، فلا بد أن يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر في الجسم والنفس . . ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان بالطاووس محشوا بالفستق والصنوبر وأبى فروة !

* * *

أما بقية الطيور النافعة للانسان أى التى تأكل الديدان الضارة والحشرات في الحقول ، فانها أخذت في الانقراض . سبب ذلك : الهواء الفاسد في المدن والمبيدات الحشرية في الحدائق والحقول . ان هذه الطيور رغم حرص الانسان عليها ، لأسباب مصلحة أو انسانية أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لماذا ؟ لأن الانسان اما أن يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعاً لابد أن يعيش الانسان — كما عاش دائماً — على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان أيضاً !

فقط كل الكائنات التى تعيش في أعماق البحار قد عاشت لأنها بعيدة عن متناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتاً طويلاً بعيدة عن الانسان . فاذا اقترب منها ، كان الموت قريباً أيضاً . وسوف يجيء دورها طبعاً .

إذا كان الإنسان حريصا على الحيوان لأنه مصدر غذائه وكسائه ووسيلته في الانتقال ، فإن هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت . الخيول مثلا : كانت وسيلة الانتقال للإنسان . وكان الحصان إحدى أدوات الحرب . وقد حاول الإنسان في الحرب العالمية الأولى أن يدفع بالحصان لخوض غمار معارك الفرسان وكانت معارك انتحارية . وفي الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماما . . وفي الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم يعد أداة النقل والمواصلات في العالم . ولذلك فلن يعيش طويلا إلا في السيرك والاف في اصطبلات سباق الخيول . أى أن الحصان سوف يبقى لأسباب رياضية وجمالية . .

وفي القرن الماضي أنشأت كل من بريطانيا وأمريكا اصطبلات للتقاعد . فالحصان الذى تقدمت به السن ، وجاء الارهاق فخلع أوصاله ، لابد أن يستريح في حظيرة حتى الموت مثل كل الناس ! ولكن لن يتسع وقت الإنسان لمثل هذه الرقة . فسوف تموت الخيول في الحقول وفي السيرك وبعد ذلك يكون لها قفص في حدائق الحيوانات الى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام . . سوف يجيء دورها فإذا استطاع الإنسان أن يحصل على صوف جيد دون حاجة الى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن الإنسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط الصوف الصناعية في المواد الكيماوية لتعيش أطول وأتعم وأكثر ليونة . بل إن بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت في المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك أنه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية دون حاجة الى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال أقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل الإنسان الى خيوط أقوى وأجود وأكثر نعومة ولعانا . فإذا وصل

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التي عاشت للإنسان وعاشته وماتت من أجله عشرات الألوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع في متاحف التاريخ الطبيعي أو أرسلت من ينوب عنها في حدائق الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والمقرد !

ولا تزال هناك مشكلة أمام الإنسان هي التي ستجعل الأغنام والأبقار والطيور أطول عمرا : وهي أن الإنسان لم يجد حتى الآن مصدرا بديلا للبروتين الذي يجده في اللحوم . ولذلك سوف تبقى هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

ان الإنسان أصبح أقل ميلا لتناول اللحوم من أى وقت مضى . . صحيح أن الإنسان كلما أصبح مقتدرا اشترى لحما أكثر . ولكن هذه النظرية معناها : ان الجوع أقل تناولا للحم . ولما كان عدد الجوع أكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فان عدد الذين يأكلون اللحوم سوف يكون أقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل عددا أكبر من الأغنام والأبقار والطيور ينعم بالحياة . ولا بد أن يدخل في حسابنا أيضا أكثر من ألف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم في الصين والهند .

وإذا نظرنا الى ما أكله أهل باريس مثلا في ١٨٨٩ نجد أن الفرد كان يستهلك ١٥٤ رطلا في السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد أصبح يستهلك ١١٠ أرطال . . بينما يتضاعف ما يستهلكه الفرد من النبيذ في نفس المدة !

وفي أمريكا كان الفرد يستهلك في سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا في السنة . ولكن في سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا . وفي الحروب يزداد استهلاك الفرد . . وبعد الحروب يهبط الاستهلاك .

فهذا الاعراض عن اكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة لملايين
الابقار والأغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هذه
الكائنات . فكل هذه الكائنات لها أعمار مربوطة فى أصابع الانسان،
ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

* * *

ولكن يجب الا نتصور أن الانسان هو أقوى الكائنات : الجراثيم
أقوى منه . . ثم أن الانسان عندما لم يطق أن يتحمل ضغط الجو فى
البالون الذى أطلق فى أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتفعا دون
أن يصابا بأذى من الهواء والضغط . . وعندما أطلق الانسان قنبلة
الذرية على جزر بيكينى : عاشت الخنافس والخنازير والماعز .
واخترقتها الأشعة ولم تمت . . ثم عاد التراب الذى فغطى هذه
الحيوانات ولم تمت فى حينها ولا بعد ذلك بسنوات . . ولم يكن فى
قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشعاع والتراب .

من يدري ربما انقرض الانسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب
أخرى تتفرج على هذه الحظيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الأرضية
.. تماما كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب
من نابلى عندما تجمد الشعب كله وتحولوا الى قمائل حجرية .

من يدري ربما فعلت كائنات أخرى أكثر عقلا ووضعتنا فى حدائق
للحيوانات الأقل وراحت تتفرج علينا كما نتفرج الآن فى متاحف
التاريخ الطبيعى على الجماجم والأعمدة الفقرية للانسان الاول —
ربما !

قود في كل مكان !

وكننت أفضل ان تكون الصفحات التاية في
أول هذا الكتاب .. فهي تصف الحيوان وسلوكه
دون تحفظ .. اي دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى ان
يفعله الانسان .. ولسكن الحضارة تجيء وتقييد
الانسان وتضع الفرامل والضوابط والقواعد
والحلال والحرام واللائق وغير اللائق على كل
مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد أن عرفنا جوانب من حياة الانسان يمكننا أن نعرفها
أعمق وأوضح اذا عدنا عشرات الألوف من السفين .. أو اذا
ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففي الحقيقة نجد الانسان متخفيا
وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان أكثر صراحة ..

لأن الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هي دليلنا الذى لا يخطئ الى فهم
الانسان مرة أخرى ..

فان كان قد فاتك أن تفهم الانسان من مئات الصفحات
السابقة ، فهذه هي فرصتك فى أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك
ونفسك ..

فإذا شعرت بالخجل فلأن الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هي
.. وما تشعر به أنت !

* * *

وإذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك
ويقول : يا حيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث ..
فكل ما فى الحديقة حيوانات : التى فى الأقفاس .. والذين
خارجها .

وإذا وقفت أمام قفص القرود ورأيت القرودة تفلّى ابنتها
الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف . أما فى
المدينة كالكوافير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل
اليه عقل الانسان .

وإذا أنت القيت ببعض السودانى وتزاحمت عليه القرود
وضحك طفلك الصغير ، فاطن أنه لا داعى لأن تضحك أنت .
لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى
تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص اتسى من قفص القرد .
وانت محكوم فى داخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف ..
وإذا أشار رئيسك فى العمل بالعلاوات أو الأرباح فاتك تقفز مثل

هذا القرد واكثر .. وليست العلاوات الا انواعا من الفسول
السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القروود ..

واذا رايت القرد — امام كل الناس — يركب ظهر الانثى .
فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه اتفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه
فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا . والناس
فى جو الخوف يتمسقون .. انهم يواجهون الموت بالقبسات ،
ويواجهون الموت بفسريّة حب البقاء .. والبقاء عن طريق
الجلوس ..

واذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن
المؤكد ان الانسان له ماضى . وهذا الماضى مازال حروفه
الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القروود .. لماذا لم يكن هذا
القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . واذا كان
الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين ..
فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال
مصونة مكنونة فى اقفاص القروود ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه
العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب
التي صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

واذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة
والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على
راى واحد .. ولكنهم امام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة
دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة
وجديدة ولا بد أن تدير آلافا من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد
ذلك فى امكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القردة من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر ؛ وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقى ، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية ، فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تفضل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العنقاء لا يواجه الشاة ..

والحيوانات لها مواسم . والانسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضاعة والولادة .. لكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القردة لتعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم .. ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى إحدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير أليف يظهر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضموه فى قفص على انفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفريقى نادر . ولا نعرف اسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وأنف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب اننادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجب التى عاشت

فى العالم كله . ولا بد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولا بد أنها مرت بظروف غريبة . وأنها توافقت مع هذه الظروف . وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة من بقية الأنواع الأخرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الإنسان — هذا الفرد العريان — نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات الى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار الى صيد الوحوش .. ثم الى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجله .. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته ..

وان كان الإنسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة فى الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية — أى التى لها أئداء ترضع بها أطفالها — تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء . والوقاية من حرارة الشمس فى الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديى عريان فى معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدراجيل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الإنسان ..

والإنسان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الإبصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانات الأخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الإنسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

والشتم . ففي سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على انشتم ، فأثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الإنسان مليون ونصف مليون مرة ..

والإنسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضا . وبعض الحيوانات لا تقتل مجرد القتل . وإنما لأسباب وجيهة : الجوع .. أو جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التي استؤنست ما تزال عندها غريزة الصيد .. والإنسان أيضا . فالكلب الأليف يحب أن يخرج به سيده إلى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهي لعبة لأنها ليست خطيرة . وكذلك القط الذي تلقى إليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة في الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. وإذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والذئب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فإنها تمشي في طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت .

هناك خلاف هام بين هذا الإنسان وبين القرود الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الإنسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفي نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره .

ويبلغ العقل نضجه التام في الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والإنسان لم يستمتع بهذه الطفولة الا بعد عادات أخرى اكتسبها . . . وهي ان الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة في حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة في البيت مع أطفالها . والمرأة في البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وان تبقى وفيه مخصصة له اذا ذهب للصيد في الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى الا بعد ان كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى الى الارتباط والارتباط أدى الى قيام وحدة من رجل وامرأة وانشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال . . . واذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى ان تتعاون فالإنسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان منافس أيضا . وكثيرا ما أدى به التنافس الى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر . . . واذا كانت رغبة الإنسان في التعاون هي التي جعلته يخلق الأسرة ، فان رغبته في التنافس هي التي جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى . . . واكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة في الدفاع عن النفس وفي القتال . . . وجعلته يشعل النار في عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة . . . تأريخ الإنسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الإنسان لأخيه الإنسان . .

أما لماذا سمى الإنسان بالقرود العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول ان طفل القرود عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما . . ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والإنسان لأن طفولته

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين في الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك في الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة في الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطي معظم الجسم .. كالقروود تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التي يغطي جسمها بالشعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الإنسان يعيش في الكهوف .. ويقال لأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه .. ولأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول أن الإنسان عندما اخترع النار لم يعد في حاجة الى أغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر .. وأنه قادر على أن يجد الدفء في ضوء الشمس نهارا . وأن يجد الدفء أمام النار ليلا .. وأن هذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطي جسمه كله .

ويقال أن الإنسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وأنه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان بصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى إلا رأسه على سطح الماء .. ولذلك — مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى — أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد في تفسير خلو جسم الإنسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الأخرى ..

وربما كان لشعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الإناث ولذلك أصبحت

الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربته ولحيته .. ويتترك الشعر فى صدره وتحت أبطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة أحببت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الانسان أحب الواقع .

نعود مرة أخرى الى قفص القردة الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع أحذية وإلى مصمم أزياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسودان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا .. وان يكون مشتتلا جنسيا . وان يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة وأولاده .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مذهب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معتد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التسايرخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها انقروء على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها .. وقاومت فتحركت يداها واهتز عقلها أيضا .. وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرد وان كان هو يتوهم انه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الاتفاص لغيره .. ولنفسه .. ويجعل اتفاصه هو كيفية الهواء اذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت في طريقها الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد أصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته في القتل . وانما هذه الرغبة هي التي طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها .. والانسان — هذا القرد العريان — كان صيادا في الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الغرامل على رغبات الانسان . وانما رغبات الانسان هي التي أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود اليها . ويبدا الانسان هذا الشوق الجنسي في سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسي . والمداعبة . والمطاردة . والمصيد . والانتباه الجنسي والمهياج الجنسي .. والاشباع ..

والانسان حيوان شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الانسان هو اول حيوان يحرص على ان تكون له أسرة .
أى تكون له امرأة واحدة . يحرص عليها ومن الضرورى أن
تحرص هى أيضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من
الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه
انثاه وأولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين .
ولابد من حماية لها أثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الأنثى .
وعرفت الأنثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان .
لأنه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى أن
يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الأنثى الحق فى أن تعيش فى
كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين . .

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما فإن على الذكر أن يحترم
عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو
وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضلات
الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وإنما عقله هداه الى
أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه أيضا لاستخدام
أسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس . . وهداه الى وضع
حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى أثناء فترة الصيد
هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر
على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى
مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضا .
وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى . .

وتمكن الانسان — خلال مئات الألوف من السنين — أن يصلب عوده . وأن يقف وتعلم الانسان أن يكون له رغبة واحدة . هذه الرغبة هي الشريكة . أو هي اللصيقة . أو التابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج الا فيما بعد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرد مثلا ..

ففى فترة الحمل عند القرد — أقرب الحيوانات الينا — تقرب الأنثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعد تماما عن الذكور . فيما عدا الانسان — هذا الشهوانى — لا يقوى على الحرمان الجنسى طويلا . ولذلك فمن الممكن أن يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد الا تتجه زوجته الى ذكر آخر .. وكان الأنثى أرادت هي الأخرى الا يتجه الذكر الى أنثى أخرى . فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة .. فهو اذا عائق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الانسانى شديد الحساسية للملامسة . وفى هذا الجسم الانسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والانسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك .. ولذلك فى استطاعة الانسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الانسانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الانسان : الشفتان ..

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرت وتضخمنا لأن الانسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع لدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنها مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فانهما حادثان بلا طبقة شحمية . فإذا اقترب منك القرد وقبك فانه يطبع فكه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبله من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى الى كل الجسم بل ان هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . وبسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبله وتثيرها ، فان تسليم الشفتين هو موازنة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى .. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فان الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجيء الأذن

يقول بعض العلماء ان اذن الانسان كانتا طويلتين — كأنفى الحمار مثلا ثم ضمرت الأذن بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبهه بين اذن الانسان واذنى القرد .

ولكن هناك خلافا واضحا : هذه الشحمة التى تتدلى من الآن . . من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لها فائدة . ولكن الانسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الاثارة الجنسية . . امسك الأذنين بأصابعه أثناء اللقاء الجنسى . واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جرسا يضغط عليه فاذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفث . .

أما النهدان فهما عند أنثى القرد العريان متضخمان . . وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لها . ولكن أثناء القرد ليست فى ضخامة أثناء المرأة . على الرغم من أن أثناء القرد أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القرد لم تؤد الى تضخم ثديى القردة ، ولكن أنثى الانسان لها نهذان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الأمومة ، ولكن بسبب الاثارة . . فالنهذان جهاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الانسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة . واذا كانت خاصة بالشم عند الانسان قد ضعفت فان هذه الحساسية تقوى عند العناق . ويصبح الأنف قادر على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق العطور ورائحة الجسم الانسانى نفسه .

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الانسانى قد اكتسبناها من مئات الألوف من السنين . . واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل

الذى نمتاز به عن الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الإنسان الآن .. هل ما يزال الإنسان كما كان من مئات الألوف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والانجاء والاثباع ..

لم يتغير شيء .. وإنما الأسماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد .. الأصول .. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية . متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرباء فى حياتنا ..

فبين الرجل وإنثاه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عادات . إلا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل أيضا . ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

وإذا كان الرجال معا يذهبون الى الصيد ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا . هذا الاختلاط حتم إقامة الفوارق والحدود . وعرفت الإنسانية معانى العيب والحرام والشرف . أى أن المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال في وضع الحواجز واقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفي المصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضع على الحزام قفلا يحتفظ بالمفتاح في جيبه . . . عاما . . . وعشرين عاما . ويترك في الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمطين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه . (وفي كل اللغات العالمية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع المرأة أى عاشرها كئنها زوجته) . . . انن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية في كل تصرفاته الجنسية والعاطفية . . بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .

* * *

ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على الا يصدم احد بأحد . . أو يصطدم رجل بامرأة . لأن الملامسة لها معنى جنسى . وان كنا في حياتنا العادية لا نقول ذلك . وانما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق . . هذا سوء تربية . . ولكن المعنى الحقيقي أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وانما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه . . وانما من حق غيرك ، وان كانت هذه الملامسة مسموحا بها في أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب . . ولو فرضنا أن سيدة

اصطدمت برجل في الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج فأنها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الأدب لأنه في المرة الأولى لم يكن له حق . و في المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء في كل مكان . كان من الضروري أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الوفاء السنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة وأخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضم ساقها . والا تفتحها حتى تعتاد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فأنها تحاول ألا يكون صوتها عاليا . وأن نخفي ضحكتها وراء يدها .. أو تنحني لتخفي ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب ألا تكون عامة !

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه .. بل ان الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تقتستر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى .

وكذلك أرداف المرأة . فهي حريصة أيضا على إبراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المرأة تحقق صدرها بالشمع . فإنها تحقق أردافها أيضا .

فكأن المرأة لا تخفى جسمها . وإنما هي تخفيه ليظهر أكثر .
فلماذا ؟

نعود الى جبلاية القروء : ففي عالم القروء نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة الى الاستسلام للذكر القوى أو الأنثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى والخوف في جبلاية القروء سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الأنثى . ولا يملك الضعيف في هذا الزحام الوحشى إلا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه . وليس لدى القروء إلا جسمها .. فتضعه أمام الذكر الأقوى !

وفي عالم الإنسان أيضا . فالمرأة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفي نفس الوقت تفويب رغباته العدائية أو العدوانية .. الى مجرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتها .. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الإنسانية . فخرج المرأة الى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين .. فكأن المرأة عندما تخرج الى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. أى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق اثسباع العيون تقطع أيديهم .. وإذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد أن الأيدى ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه المنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ، لماذا تفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فإذا سال لعبه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكأن المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب .. الى قرد عريان .. الى عريان .. فكان المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصيرة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. أنهم يقومون بكل شئ بالنيابة عنا .. انفسنا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل أننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطللة

فى حالة هناق حار . ولا أأء يسال نفسه : طيب هو يعانقها ويقبلها
واأنا أأنا ايه ؟ ..

لا شىء طبعاً . ولكن أثناء عرض الفيلف نأءمف مع البطل والبطللة
وننسى أن الذى أمامنا هو تمثيل فى تمثيل .. ولكن النظر مآعة ..
ولذلك عندما يتعانق البطلان نأس بالكهرباء ويسيل اللعاب ..
ونعالى آهات الحرمان .. آهات صاحب العين البصرة واليد
المقصيرة !

وفى الصحف والمجلات صور عارية .. وفى الروايات قصص
عارية .. وصفحات غرامية من نار .. كل هذا نأأنا عنه . لأنه
لذة . ومنعة . ومشاركة بالعين فقط .. ؟

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل أنسان
أسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة .. نأنا أن هذه الدعارة
أأنا الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى أأنا الغانيات بلا حب
ولا مقدمات فأمآد يآه آون أن يراها .. أى يكون طويل اليد
قصير النظر .. ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية .. أو يترك
زوجه وأولاده وبيآه من أجل غانية .. أو من أجل واحدة تملأ
الزراعين وتسقط من العينين .

والدعارة هذا العفن الأأنا والأأنا — هو أأنا السهموم
الذى يأمون بها الأسرة — أو كأنه أأنا الأسدة العضوية التى
يسأأمونها لتغذية التربة ؟ .

ورغم المأاولات الكثيرة للتخلص من القيود المأائلية . أو
الأأنا منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة أأنا . فقد

حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف ..
وحاولوا وضع الأطفال في مكان عام دون حاجة الى ام او اب ..
كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرا الانسان عنها ولكن لم
يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة
الواحدة والطفل والبيت الخاص . وان تكون له خصوصيات . وان
تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وان يكون له اطفال . وان
يتولى هو تربية اطفاله وهذه هي احدى مشكلات الاسرة واحد
اعباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست
مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقرود منها .. وانما هي مشكلة
انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !



من قلوب الأمهات ! خرجت موسيقى الحناض

عندما يولد القرد، فإنه يمسك بأمه . يمسك
بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كأنه تدرب على
هذه العملية في بطن أمه ومنذ وقت طويل . .
ولا يستطيع الطفل الانساني ان يفعل ذلك الا بعد
وقت طويه .

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه الى تربية
أو تكريب . . ثم انه ليس عبثا يصيبها بالقرف
والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها . . وينفخ
صدرها . . ويعتمد عليها . .

أما الطفل الانساني فإنه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحمل فيه
حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة . . ولا بد أن تصرح
الأم بأعلى صوتها . ولا بد أن يبكي الطفل أيضا . ويحرص الأطباء
على أن تصوت الأم وعلى أن يبكي الطفل . لماذا حدث ذلك تلفت
الطبيب يتلقى التهاني من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد
بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذي يفرق جسم

الطفل ثم تغسل جسمه تماما . . أما الطفل الانسانى فانه يولد عاجزا تماما على فعل أى شىء . . وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود . .

ولا بد أن قطع الخلاص على طريقة القروود كان أسلوب أجدادنا من ألوف السنين ، فيما عدا أنهم لا ياكلون الخلاص . ولا بد أن حاجة الأم الى مساعدة الآخرين فى هذا الموقف ترجع الى مئات الألوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة . .

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسانى يبدأ لبن الأم فى السيولة النشطة . فاذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا . . والرضاعة الحديثة تكفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قاترة على الحمل من جديد . . ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القروود ليست مشكلة . . ولكنها عند الانسان — هذا القرد العريان — مشكلة كبرى . فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعده فهي تحمله على صدرها . وهي تضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدي ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفثيه بحيث تكون حلمة الثدي بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب أن تكون الرضاعة سهلة فى الايام الخمسة الاولى ، واذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك . .

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهي لا تدري . ولكن عند الطفل أسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس : ففمه الصغير مليات بالبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها .. ولذلك يجب أن نراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى أن صدر الأم — نهديها — ليس جهازا للأمومة . وإنما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات اللبن التي يرضع منها الطفل . حلمة الزجاجاة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجاة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجاة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حلمة الثدي طويلة ممدودة تدخل بين شفثيه بسهولة تامة . بينما الطفل الانسانى يجد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على امساك الثدي بسهولة القروء .. فكان ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل .. !

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج الى تفسير جديد . فقد دلت الابحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار اثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى لا تستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل اثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم .

وأن الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم .
وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا في هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده
الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى أحشائها في ذلك المكان الأمين
الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد . . ودقات قلب الأم
هى الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن نيام . والمرأة
تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من
السنين .

وقد أجريت تجارب على اطفال صغار وضعوا في غرفة واحدة
في الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب — أى ٧٢ دقة
في الدقيقة — ف لوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا
أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد . . على
عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل في غرفهم .
فهؤلاء الأطفال يبكدون طاقتهم في البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : اطفال في
غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة في الدقيقة . . واطفال في غرفة بها
جهاز يدق ٥٢ دقة في الدقيقة . . والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل
عليه دقات قلب حقيقى . . ف لوحظ أن اطفال الغرفة الثالثة هم
أسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصدره القلب وليس
الرأس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة . .
فنحن نشير الى الأمن والأمان الى جوار الأم .

ولا بد أن تكون « مرجحة » . الطفل . . وهددته حتى ينام . .
سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم . . ولا بد أن هذا هو
الذى يجعله ينام . . وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه

يعيده الى هدوئه عندما كان فى بطن أمه . . وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به . . أو عندما نهز أرجلنا . . كل هذه محاولات لأن نهدي أنفسنا . . أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح اليها الشباب هى موسيقى الدقات العالية . . دقات الطبول . . دقات القلوب المصنوعة من الجلد . . هذه الدقات تهز الآن وتتأرجح لها المشاعر . . وقد اختار الشباب فى العالم أسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفكان . . موسيقى دقات القلب . ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشباب بعد حفلاتهم الموسيقية المصاحبة ينامون . . ولذلك يحرص هؤلاء الشباب على أن يناموا أثناء العزف الموسيقى . . ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراح أجسامهم وأعصابهم أيضا . . ان هذه الموسيقى قد أعادتهم الى طفولتهم . . الى قلب الأم . . والى حنان النغم . . فناموا كأنهم أطفال صفار كأن موسيقى الخفافس قد صدرت من قلوب الأمهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الأرض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . وفى الثامن يعتمد على اثاث الغرفة فى الوقوف . وفى التاسع يزحف . وفى العاشر تساعد أمه على المشى . وفى الحادى عشر يعتمد على اثاث الغرفة فى المشى . وفى الثانى عشر يستطيع أن

يصعد السلم بيديه ورجليه وفي الثالث عشر يقف دون مساعدة .
وفي الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفي هذه الاثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفي السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفي الثالثة ٥٠٠ كلمة وفي الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفي الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفراد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القردة على الكلام .

قَمْثلا : اتوا بقرد وجعلوه يعيش في نفس بيئة طفل انساني . وبعد سنتين لم يستطع القرد أن ينطق أكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وأن كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فإنه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى من أجهزة الانسان .. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتي لا يكفي .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور اقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالبيغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التي عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذي كان يجب أن يخرج في جماعات للصيد . وكان لا بد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصائدين .. فاللغة ضرورة حيوية عند الانسان ..

والطفل الانساني ككل اطفال الحيوانات الثديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور

لها صرخات أيضا . والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو اذا ظهر أمامه أو حوله شيء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحبيه . وفي هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهذه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتسام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عند الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشهر الثالث ، فان البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فانه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فان الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك أناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون أو يبكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكى عيناه ، فيمكن أن يقال

عن الطفل : انه بكى حتى ضحك . . فالطفل يبكى حتى يجيء احد .
فاذا جاء توقف عن البكاء . فاذا عرف هذا الذي جاء فانه
يبتسم . . ثم يضحك . . وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة
ويضحك . . نفس الملامح مع خلاف بسيط في لمعان العينين . .

وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الأبوين
والأقارب . . ويدخل الطفل مرحلة هامة من حياته . . مرحلة
الكائن الاجتماعي الصغير . .

والشيمبانزى يبتسم ويضحك ويلعب مع مسفاره . .
والشيمبانزى اذا ضحك فانه يمد شفثيه الى الامام . وهي قريبة
من الضحك الانساني وعندما يخاف الشيمبانزى فانه يسحب
شفثيه الى الخلف ويكشف عن أسنانه . فالحيوانات تضحك
وتلعب . والانسان ابرع الحيوانات كلها في اللعب وفي فنون اللعب
.. وكلما كبر الانسان اتسعت أمامه فرص اللعب بأنواعه المختلفة
.. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عندما يستمعون الى مطربهم
المحبوب . او يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن
هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صدورهم
ويمسك الواحد منهم الآخر . . انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم
سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى
شعور بالألم . . فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانما صرخات
بقصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم واحساسهم . .
وانهم في شدة السعادة التي بلغت أقصى درجات الألم . .

ولو اتينا بشباب أو شابة واجلسناها مع المطرب الذي هو متي
احلامها فانه لا تصرخ ولا تشد شعرها ولا تدق صدرها . .
فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء الى الآخرين . .

لأن الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد أن يسمعه انسان آخر .. أو آخرون :

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها مصبيا أيضا ..

الأم التي تبسم لطفلها فأنها تهدئه . ولكن إذا فوجيء الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فأنه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذى تقصده أمه

وإذا الأم اهتملت ضحكه أو ابتسامه ، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملمح الأم . فماذا نغيرت لأى سبب فأنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند المشبهاترى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام

سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فأنه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لأول مرة ، فأنه بسرعة يعود اليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فأنه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل الانسانى عندما يولد فأنه يكون عاجزا عن عمل شئ . وليس لديه

شيء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشببات لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالإنسان الصغير محتاج الى علامة الى إشارة تدل على أنه في حاجة الى معونة ومحتاج الى إشارة أخرى فيقول انه قد تحققت له المعونة وانه استراح الى ذلك . والابتسام هو المكافأة التي يمنحها الطفل لأمه . . فهو اذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا . . واذا ابتسمت هي فكانها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل في الأسابيع الأولى تكون غير مركزة . . انها ابتسامة عامة . . ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عيني الأم . . ولو قدمنا للطفل في هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينا . . لابتسم لها أيضا . . وفي الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم . . وفي الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه . . وابتداء من هذا الشهر ينطبع في نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته . . انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . وأحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة اول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو . . أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندها يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فان استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف . . ومهمة الأم هنا هي تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانساني يتعلم بالنقل والتلقين . . وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هي ثمرات لبذور غرست في
الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه
ويسمى ذلك سلوكا أخلاقيا ، ليس في الحقيقة الا ما ترسب في
نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار
الفريزة أيضا .. كما أنه من الصعب أن تغير التقاليد والعادات التي
ترسبت في طفولة المجتمع الانساني . فإذا ظهرت أفكار جديدة تهز
القديم ، فإن القديم ، يقاوم ويتحسس له الناس . لأن الجديد يريد
أن يقتلهم من طفواتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد
يسود مع بقاء القديم أيضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد ..
هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية
الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجردت طفولتها على
ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة — كالانسان السعيد أيضا —
هي التي تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحفظ من القديم بما ينفعها
أيضا .. أي المجتمعات التي اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين
الماضي الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة
.. كيف تفرس في نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن
الذي يضره ويضر غيره ..

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك الى
ضرره .. يريد أن يعرف .. أن يمسد عينيه ويده .. وخياله ..
ويلعب اول الأمر ، ثم يحول اللعب الى فن : رسم . نحت .. تمثيل
.. موسيقى ؟

القرود والسلسلة ! والقرود الخ

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة في أن تتشبع في كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذى تجده شيء يصلح للأكل . والقرود هو أكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . أما الإنسان فهو أكثرها شهامة ويمكن أن يقال أن الإنسان حيوان « دباغ » أى يأكل أى شيء وفي أى وقت ..

وكما أصبح الحيوان متخصصا في طعام معين ، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفي نفس الوقت خائفا أيضا .. فالحيوان الذى يأكل النمل لا يرى إلا هذه الحشرة (١) .

وبصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة .. وإذا اختفى هذا النمل لأى سبب مات هذا الحيوان .. !!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت في بعض الطعام ، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع أن يحدث

(١) انظر الطبعة الأولى من كتاب « من أول نظرة » ص ٤٥١ وما بعدها ..

أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالإنسان يجب أن يبحث من طعامه فى كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا والا مات .

والقروء عندها حب استطلاع شديد . تماما كالإنسان ، ولكن عندما تكبر القروء ، فإن هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الإنسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الإنسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شيء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن اذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعام أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شسيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونخترنها وننتكرها فيما بعد ..

فالطفل الإنسانى يريد أن يعرف ، يمد يده الى كل شيء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة من هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراهة : انهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : أن الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال — أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان أيضا : اللعب ، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانساني ، فالصغار عموما يحيون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمون ويكسرونه ، ويخترعون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آرائهم معنى الألعاب أو الحركات التي اكتشفوها . أما الطفل الانساني فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرد الصغيرة والأطفال الصغار : ان القرد كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

واذا أعطينا القرد الصغير ورقة وقلم ، فإنه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة .. وأحيانا خطوطا متقطعة .. أما الطفل الانساني فيتهدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرود يحبون الخبط والرقع .. أي يحبون ان يلعبوا بالاشياء التي لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر .. يحبون البمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانساني عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانساني وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذي يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذي صنعه أو اهتدى اليه ، وإنما هو رسم فقط ! .. انه

كالذى وجد قرشاً على الأرض . وراح يلعب به فقط ولكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخر . . او يستطيع أن يشتري به أى شيء . . او بعبارة أخرى : ان القرش لعبة ، أى انه يساوى ثمنه لعباً ، أى أن اللعب لذة مدفوعة المثلث فوراً . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الأصوات : لا نجد أن للقرود الصغير أو الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئاً جديداً ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخرى : أى بقلب الحروف ولخبطةها . . انها مهارة جديدة اكتشفوها فى أنفسهم . . وان كانت القروء لها أصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها أيضاً عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كما أن القروء فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الخوف . . ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشيء المفرغ عوداً أو قيثاراً ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل لمرحلتها منظمة . . او حركاتها مدروسة كالرقص عند الإنسان . او كالألعاب الرياضية . . فالرياضة هى حركات ذات اتساع ، هذا الاتساع متنوع من لعبة الى لعبة . .

حتى الكتابة هى أيضاً نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضاً .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل الى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد في عالم الحيوان .

ولكن الجديد في عالم الانسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فاذا أصبح مألوفاً اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط في خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والآلات ، ولكن الجديد في أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الانسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرود ، أو بين القرود العريان والقرود .

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء في أول الأمر ، فالأب يلاعب طفله ، والطفل يلاعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. أى يكون للطفل نشاط اجتماعي ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معاً ، وهذه مرحلة دقيقة جداً في حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير في حياته ، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة في محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل في أن يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعوبة عليه عندما يكبر . واذا كانت علاقة الطفل بالاشياء المادية كالبيانو أو كالكناى صعوبة في الطفولة ، فان علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، أى الذى ليست له

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه في وضع سيء وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التي أجريت على القردة مثلا : أننا إذا عرفنا قردا من القردة الأخرى .. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعد ذلك بقرد غائبه يظل عاجزا عن المشاركة معها في اللعب أو اللهو حتى في الجنس .. بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء ان القردة التي تنعزل طويلا اذا وضعت في مجتمع القردة فانها تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. واحيانا تخفي وجهها بيديها .. كأنها في حالة خوف أو خجل أو مجز عن الاشتراك في أى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولنتظر ماذا يحدث في عالم القردة : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فإذا خاف عاد اليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فان الأم تطرده بعيدا عنها ، لكي يشترك مع القردة الأخرى في اللعب فإذا عاد اليها فانها تضربه وتقسو عليه .. كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفي هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا في حالة الخطر الشديد أما اذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانها تطرده وتضربه، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها في المرحلتين فان النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

واذا عرف الحنان في الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، فاذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون أنسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الانسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لأن الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب ان يكون متكررا ، أى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبين لهم حركات ثابتة .. يهزون رعوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوما أكثر من اللازم . أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

على كل شيء هو انسان (عادى) — أى يجعل العادة تتحكم فيه .
حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف أحدا ، ولا
يخاف من أحد ، وهناك مثل شعبي يقول : آفتى : معرفتى ،
وراحتى : ما أعرفش — ومعناه انه لا شيء يخيف أكثر من المعرفة ،
ولا شيء يريح أكثر من الجهل ! . .

ولا بد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن
يأتى بالأمعال الرتيبة . . مثل نقاط القلب فنقاط قلب الأم تريح
الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل نقاط القلب هو شيء
مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخلف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق
بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه . . أو يتحرك فى الغرفة . .
والطالب أثناء الامتحان يضع القلم فى فمه . . أو يلعب بشاربه . .
ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل نقاط القلب .

وهذه الحركات . . أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهى تساعدنا
على احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

واذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة
متسلطة علينا . . أى اننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك
امتحان . . أو نروح ونجىء فى الغرفة من غير مناسبة . . من غير
أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط هذه الحركات والتوقف
عنها ! . .

وهذه (اللازمة) تولد من الملل . . واذا ذهبنا الى حديقة
الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى أقفاصها الحديدية . . وهى
منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية . . أى عن

الاتصالات بالحيوانات الأخرى ، فهي في حالة انسحاب وانزواء .
كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات
الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أخصاص
الحيوانات . . ان هذه الأخصاص الحديدية تشبه الموانع النفسية
الشديدة التي نحيط بها أنفسنا ونسحب وراءها ، وننكمش وننتوى
ونتوقع ونجتري تجاربنا ولا نضيف الى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا .
وانما نفرز من أنفسنا نسيج دودة القز ونتسواري وراءها . . أو
نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها
تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا . . والانسان يفعل ذلك
ايضا في المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية
للمدارس ، ونجد القروء تأعب في أضيها بأعواد الشجر ، ونجد
الفيل واقفا في مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ،
وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .
وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون الانشأة غير
السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا في قفص
قرد اعتاد أن ينعزل فان هذا القرد لا يحاول أن يتجه إلى هذا
الشيء الذى القيناه في قفصه ، ومعنى ذلك انه لا شيء يثيره أى
لا شيء جديد يثيره . . واذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشيء
الجديد ، فلن يعرف شيئا واذا كان الانسان لا يثيره الشيء الجديد ،
فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك اقرب الى الحيوان .

واذا ذهبنا الى حقيقة الحيوانات يجب أن نتذكر المدن الانسانية
التي نعيش فيها ، انها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

قفص ، هذا القفص من أعواد حديدية ، هذه الأعواد هي المنوعات النفسية والاجتماعية وهي تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانساني قد علمنا ان نتجه الى الجديد ، بخوف .. او على الأصح باحتراس . واذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته في المعرفة . فان الانسان حي لان بعض الناس مات من أجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر وأكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتي) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا في سلسلة واذا وقف القرداتي ونحن أيضا ، وجدنا القرد يأتي بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك أن القرداتي قد علم القرد أن يأتي بهذه الحركات . أي أن القرد مربوط بسلسلة أخرى هي : العادة على اتيان هذه الحركات ..

فكان القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة أخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتي الى القرد : فهذا الرجل يعيش في عالم محدود ، عالم القرد ، ويمشي في أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذي انقطع .. فأى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد أن القرد هو المربوط في الرجل ، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هي وحدها المحبوسة في أقفاص ، وليس
الإنسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القردة .. انها
ايضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدري بها ! ..

فكلما ان هذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسمه
(انساناتى) !

وكلنا كذلك !! ..



لولا سلاكمه .. سبق كلاكه !

لسبيين يعتدى حيوان على آخر : ندافع عن الأرض التي يعيش عليها ، او حرصا على السلطة التي يتمتع بها في القبيلة أى انه يدافع عن السلطة او عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا يهمها السلطة . . وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الأرض . اما الانسان فانه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفي جبالية القروء نجد أن القرد الأقوى هو الذى يسيطر . أما قوته نهى في عضلاته أو في حيويته . لماذا كانت حيويته هى مصدر قوته فانه يعتلى كل الإناث وكل الذكور أيضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبالية !

وكما تطور الانسان في علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة ، تطور أيضا في ممتلكاته . لكل واحد له شيء يملكه : أرض أو بيت . وقد وصل الانسان الى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسافرون بعيدا للصيد . وكانوا يتركون بيوتهم

وأولادهم . ولذلك كان لا بد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . وإذا كان القانون يحمي الضعيف من القوى ، فكأنه يحمي الأقوياء — وهم أقلية — من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة . .

وعندما يشعر الحيوان برغبة في العدوان فإن تغيرات هائلة تجرى في داخله . هذه التغيرات هي نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه الى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع في داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الادرينالين في الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم ان الكبد تفرز السكر في الدم . وينشط الجهاز التنفسي . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفع الى الأماكن التي تحتاج اليه . والى المخ لكي يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما ان سرعة التجلط معناها ان أى جرح سنوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناها ان الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذي يقوم بتبريد هذا الجسم الملهب . ولذلك

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التي يصل اليها !

وكلما ارتقت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس في التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى . وهذه الحركات تبين كيف استعداد الحيوان للمعركة ، وهي في نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان . . وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعداد جسمه نشاطه العادي . . فريقه يجرى وبوله أيضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التي يتبول فيها خاصة به . فهو يترك أثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند أحد أعمدة النور ، فهذا هو المعنى . وإذا كانت الكلاب تفعل ذلك بأسراف في المدن ، فلأن في المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التي تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هي انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه أرض تخص حيوانا آخر . . فاحترس !

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والزئير . . وأحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر ان هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والاسد له معرفة تجعل الرأس اكبر . وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا اما التغيرات الظاهرة فهي ان عضلات الحيوانات تكون في غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجيء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس في الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهذا الدوران معناه ان هناك توازنا بين رغبته في العدوان وبين رغبته في الامتناع من ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الأرض بقدميه !

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قد وضع « غله في شيء آخر » فياكل مثلا أو يهرش في جسمه .. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبني عشيا وهميا . وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتلاعب وتتمدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا اكل فهو جائع حتما . اذا هرش فان حشرة تلسعه . ومن الطبيعي ان يجوع الحيوان عندما تنبدد طاقته الهائلة في حالة التعب أو العدوان !

ولكن هذه الحركات التي يأتيها الحيوان ليست الا محاولة

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الانوما من الانسحاب . وقد ينتهى الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان الى مسيله . . ولكن اذا فشلت هذه الحركات فى تهدئة الحيوانات كان تكون قطعانا كبيرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها . . وذيلها يكون كالكرياج .

ولكن من النادر ان يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر ان يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يكله . . أى ان الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان . . فاذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . لما المنهزم فعليه ان يؤكد انه انهزم ! وعليه ان يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويخفض عينيه ولا يزار . . وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه . . وقد ينقض الحيوان المنتصر فبعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين القردة نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول . . وخصوصا الاناث ، والاثاث تعطى نفسها للذكر . وفى هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينجسم الموقف والذكور الضعفاء تعمل ذلك أيضا !

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف . .

وبكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للإنسان . مع فارق ان كل

هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان —
أى . . الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر . . من الغضب ومن الخجل . أما شعر
الانسان فلا يقف . . رغم اننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تتحنى الذراع وتجتمع أصابع اليد على شكل
قبضة وهذا استعداد من بعيد . أو تهديد من بعيد . وأحيانا
نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رءوسنا . ولكن ما نزال على
مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا .
ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه . . والسيدة
التي تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم
هذه الأنية وإنما هى تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط
ما تفعله القردة هى فى حالة الغضب تحطم الأغصان والثمار
وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته أن
يضرب بيده يجدها مفرودة . وأصابعه متراخية . وهى عملية
تحويل الغضب الى تهدئة . . وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على
الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما
يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شعر رأسه . . وخلع
البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولا ، وأقل
صلابة . . على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند
العدوان نبثق فى الخصم . لماذا أغضبنا العين أو نظرنا الى الأرض
كنا بذلك نهديء أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة الى
الحذر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر الى الفين

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما فقط في نهاية كل جملة لنعرف
وقع الكلام . .

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو
متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر إلينا من وراء منظار
يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا . . فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين
بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات . . أو مثل
هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فإذا
أحسست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة
برهبة تخيف أعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن
نستخدم الأقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل
المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام
فى المدن .

بل ان الشركات لم تكتف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت
للسيارات أسماء مخيفة أيضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف إطلاق النار من العينين
وتجىء القبلات بعد السلام . . كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء .
أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية
قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشففتين — أى الحد الأدنى
من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب أن الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا
« طفوليا » . . فينحول الرجل الى طفل . . أو يقول كلاما مثل
كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى أنه يحول

نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة الى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل ! والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرد أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التلفية » تهدى أعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البرىء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر الى الساعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظافرنا بأسناننا أو نطقطق أصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بلامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك أناس كذابون محترفون : الممثلون . فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والإنسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى

تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى . . . وإذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا اللف وأجل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد أن يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به . . . ومن الضروري أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وان كان الأسلوب مختلفا فكلاهما — كلانا نحن والكلاب — يريد أن يؤكد انه هنا . . . وان هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور . . . مثلا عندما نكسر إشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن نتحدث الى عسكرى المرور وأنت فى سيارتك . أى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجيء العسكرى اليك . . . أى الى حدود مملكتك . . . وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت الى أرضه . فالموقف فى يده . وهو سيده . . . والنتيجة ضدك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا . . . ومن أعدائنا فكان لا بد أن يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والتبال ، فأصبح فى الامكان قتله عن بعد . . . والآن تحولت اسهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقتله . . . اما الحيوانات فهي تهزم عدوها فقط . . .

رقم الإيداع ١٧٩٣ / ١٩٨٩
الترقيم الدولي . ٣ - ٣٠١ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ٨ شارع سيوفه المصري - ب ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

خزائن كوكب بومين !
ملكتم العالم الجيد !

وراء جنتكم غابة
يبيع مليون عصاة !

صاحتم : تعالينا !
هذه الحيوانات !

هو يسقط
الكرسي يطير !

الطريقه تعلم الانسان
كيف يكون حسانا نبيذ !

القدر و السلسلة !
القدر الحق !

من فوق الاموات
صوتهم جيتي الخنازير !

قروني كل مكان !

بجرك الى الطريق
والحق يا صبي !

لدينا غيب الناس والكلاب !
نظروا !

كل حيوان
يعود كما يولد في الظلم !

كل عصر
له خرافاته خاصه !

من يعرف انسان
ياهم الحيوانات !

لقد انجزت
الامر والامر الذي

لولا
سبوك كل ما !

زقوني كل ارض
تدوسها الاغنياء !

هذه الكائنات الناجية
لن تحطت الحيوان !

خلقنا الله من اجل
لنفضح علينا باثقان !

لوانم الارزيب قليلو
لندركه السحافة !

عندما اعلن موسوي
صوت النبأ ضد الاغنياء !

شجرة وامدة تكفي
هزها وانت تعرف !